جنائن الهستيريا

سعيد الشيخ

الكتاب : جنائن الهستيريا (قصص قصيرة)

المؤلف : سعيد الشيخ

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٤

رقم الإيداع : ٤٧٩٥/ ٢٠١٤

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 183 - 3

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(٢+) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٢+)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع



جنائن الهستيريا

قصص قصيرة

سعيد الشيخ

عُرِيٌّ في ظلالِ الدبابات

ـ هل أُطلق عليه النار، سيدي؟

ـ انتظر لنرى أمره.

عاريًا كما ولدته أمه برز لهم فجأة من بين الركام، وقف منتصبًا بمواجهة دبابة "الميركافا" لا يبتعد عنها أكثر من خمسة أمتار، يحدجهم بنظراته المتحدية، وهم يصوِّبون إليه فوَّهات البنادق.

كانتْ لحظة عصيبة للجنود الذين تمترسوا على ظهر الدبابة حتى يدركوا المشهد أمامهم، وما إنْ تلاشتْ صدمة المفاجأة حتى راحوا يقهقهون، إلا واحدًا ظلَّ مأخوذًا بالمشهد يتأمله، وقد اكتسى وجهه بمسحة من الإكفهرار، وبدأتْ عبراتٌ تلتمع في مآقيه، بدا وكأنه يداريها عن نظرات بقية الجنود، كان يدرك بما فيه الكفاية حجم مأساة هذا الكائن العاري.

لقد طال العُريُّ عقله، فقده وهو يفقد أُسرته بأكملها.

لأكثر من أسبوعين، والقذائف تنهمر من كل الاتجاهات، ومن السماء، أطنان من الحديد والمواد الحارقة تتوزع على بيوت مخيم اللاجئين... لم يظل شيءٌ لم تنخره الشظايا، وبعض البيوت

المتهالكة من غارات سابقة نالها أكثر من قذيفة، كان اللحم الآدمي الممزق والمتناثر بين الركام يعود ويتمزق من جديد مع كل قذيفة.

الرجل شاهد بأمِّ عينيه لحم زوجته وأطفاله الثلاثة كيف تنخله القذائف، وهو مصاب بإصابات غير عميقة، وقد استقر تحت ركام المنزل عالقًا بين الطوب لعدة أيام، وربما هذا الوضع هو الذي مَنَحَه نجاة لا يريدها بعد مقتل جميع أفراد أُسرته.

معجزة أخرجته، ليواجه الدبابة المتقدِّمة إلى قلب المخيم، وقد استقرتْ عند نقطة مكشوفة يستطيع الجنود عندها أنْ يُطلّوا من قلب الدبابة على ثلاثة شوارع مفتوحة المدى بالخرائب، وحين يأمنون أنَّ لا حركة حولهم، يخرجون إلى ظهر الدبابة، لينبري هو لهم من بين الركام، وليضع عينيه في عيونهم، وليضع جحيمه بمواجهة قهقهاتهم، كينونته الإنسانية المتكاملة بالصرع أمام الحديد.

في المسافة الضيقة بينه وبينهم كان سؤالٌ يتدلى:

ـ هل هؤلاء الجنود من الصِّنف الإنساني المحطم الماثل أمامهم؟ أم من صِنف الدبابة التي تقف على أنقاض المنازل نشوانة بالنصر على مجتمعٍ مدنيٍّ قاوم لساعاتٍ بأسلحته الخفيفة فيما ظل يتلقى أطنان الحديد لثلاثة أسابيع؟ لا شيء يخفي أنَّ ما يحدث ما هو إلا حرب إبادة لهؤلاء اللاجئين، الذين اضطروا لترك ديارهم

في الجليل عام١٩٤٨م، ترجمة لخطة جهنمية للمضي قُدُمًا في القضاء على اللاجئين ونسلهم الذي شهد النور في الشتات.

ـ هل أُطلق عليه النار، سيدي؟

ـ قلتُ لكَ انتظر.

يلِحُّ الجندي نفسه بالسؤال، فيما جهاز الاتصال راح يخشخش إيذانًا باتصالٍ جديدٍ مع القيادة التي تتلقى مباشرةً صور الكاميرات المثبَّتة بجدران الدبابة.

يأتي الأمر بأنْ تتحرك الدبابة لمسافة عشرة أمتار إلى اليمين؛ كي يتسنى للكاميرا التي في المؤخرة رصد الجانب المحجوب خلف رُكامٍ عالٍ يبدو أنه كان لبناية بعدَّة طوابق، يتحرك الرجل العاري مع تحرُّك الدبابة، ليعاود الوقوف بمواجهتها تمامًا مع الحفاظ على نفس المسافة.

فوَّهات البنادق بأيدي الجنود ما زالتْ مصوَّبة إلى رأس الرجل، الذي بدأ يطلق إشارات لأنْ يطلقوا عليه النار، إلا أنَّ بندقية الجندي المنفعل بمشهد الرجل ظلتْ نائمةً في حضنه، وهو يحاول أنْ يشيح بنظره بعيدًا عنه.

ـ أيها الجبناء.. لماذا لا تطلقون النار؟.

لأول مرة يسمع الجنود صوت الرجل، كان هادرًا يردده الصدى، ثم أطلق نحوهم سيلاً من البصاق، بصاق أحمر لم يصب الجنود

وحدهم بل تطاير ليصل إلى وجه "آرئيل شارون" وزير الحرب في الحكومة المُنْحطَّة.

نظرات الرجل الممتلئة بالتحدي تنقلب إلى نظراتٍ من الاحتقار، وهو يعاود إطلاق سهام البصاق الممزوج بالدماء.

الجندي المُتهيئ للقتل وبلا سؤال رئيسه هذه المرة، يطلق وابلاً من رصاص رشاشه "العوزي".. يرقص الرجل العاري رقصته الحمراء، ثم يسقط جثة هامدة.

الجندي المدرك لحالة الرجل، يطلق صراخًا هستيريًا له قوة الرصاص رددته حتى الآفاق البعيدة، صراخًا يشبه العويل الذي يلي الوعي بالفاجعة:

ـ لماذا أطلقتَ النار، كان الرجل عاريًا؟!

ينزل عن ظهر الدبابة بعد أنْ ترك سلاحه في مكانه، ويتوجه إلى مكان الجثة، يخلع ثيابه العسكرية وكأنه يتبرأ منها، ثم يغطي بها الرجل المقتول، ويبدأ يدور حول الجثة، يجثو على ركبتيه ويلتقط من التراب المصطبغ بالدم ويمسح به جسده.

كان قد صار عاريًا تمامًا وسط دهشة بقية الجنود حين رفع رأسه إلى السماء، وهو يصرخ بصوتٍ هادرٍ يشقُّ الفضاء:

ـ كان الرجلُ عاريًا، كان مجرد إنسانٍ عارٍ.. فلماذا أطلقتم النار؟ ها أنا عارٍ، كلنا عُراة، لتطلقوا النار!.

ووقف منتصبًا بمواجهة الدبابة، كما كان يفعل الرجل قبل قليل.

غادرنا خضر ونحن نيام

لم يعتبر نفسه من أصحاب العاهات، وظلَّ متقوقعًا على نفسه داخل الخيمة، والجندي يصيح بأعلى صوته لكي يسمعه كل مَنْ في الخيام البعيدة طالبًا من أصحاب العاهات الخروج من الخيام، والتجمع في ساحة المعتقل لعرضهم على لجنة من الأطباء.

هالَني أنَّ خضرًا لا يخرج مع الآخرين، فصِحتُ به:

ـ أنتَ خضر، لماذا لا تخرج؟.. أليس من مشكلة في قدميْكَ؟.

كان خضرٌ إنْ مشى لا يمشي مثل الآخرين، كان يبدو وكأنه يتطاول، يمد جسمه إلى الأمام مع خطواته كأنه يمشي على رؤوس أصابعه، يتمايل مشرئبًا كأنه على أهبَّة الوقوع على وجهه.. وكان إنْ حكى يحكي بتأتأة اللسان الثقيل.

عند عودته من فحص اللجنة سألته عمَّا حدث معه، فقال:

ـ لا شيء، طلبوا منِّي أنْ أمشي فمشيتُ، وبعدئذٍ سمعتهم يرطنون فيما بينهم بما لا أفهم، حتى توجه أحدهم بالكلام إليَّ:

ـ أنتَ سليمٌ يا ابن العاهرة.. أُغرب عن وجوهنا.

وبصوتٍ يملأه قهر دفين يتابع خضر:

ـ وأنا أستدير للخروج من خيمة اللجنة، وعند مدخلها، صفعني أحد الحرَّاس صفعةً هائلةً على وجهي، رأيتُ معها الشرر يتطاير من عينيَّ قبل أنْ تودي بي إلى الأرض.

لا أعرف خضرًا إلا شابًا بسيطًا، ويمكن حسبانه من هؤلاء الدراويش المكتئبين الذين يهيمون على وجوههم، كان يغيب فجأة عن البيت، ويذهب أهله للبحث عنه، لكنه فجأة يعود.. بعد عدة مرات من غيابه اعتاد أهله على حالته فكفوا عن البحث، يغيب لأيامٍ لا يدري أحدٌ له مكانًا، وفي كل مرة يردُّ بدهشة على سائليه عن سرِّ غيابه:

ـ أنا هنا، ولم أذهب إلى أي مكانٍ!.

الصدفة وحدها هي التي جعلتني أكون قريبًا من خضر في هذا المعتقل المترامي بالخيام تحت سماء محتلة كما هي الأرض.

يأتينا الغزو، ويحيلنا إلى كائناتٍ مُدَمَّرة بعدما عشنا دمار بيوتنا، وهي تتطاير تحت انفجارات قذائف مرسلة من البحر والجو، ومن كل جهة غير محتسبة.

كانتْ الحرب تتوغل فينا إلى أبعد الحدود، وتقتلعنا من ذواتنا بما لا يبقي للمرء الاستطاعة في أنْ يعود إلى ذاته.

أيام طويلة لتسكت القذائف، ونجد أنفسنا نحن ـ الأحياء المقرفصين على خرابنا ـ وجهًا لوجه مع جنود يبحثون عنَّا ليسحبوننا إلى المعتقلات تحت حد الأنصال وطلقات الرصاص..

إجراءٌ لا بد منه تتبعه قوى الغزو في كل زمانٍ ومكانٍ؛ كي يستتب الاحتلال... الأسلاك الشائكة تحوطنا من كل اتجاه، وخيامنا المرقَّمة تمتد إلى أبعد ما يستطيعه النظر، خيام مكشوفة على بعضها، والأهم أنها مكشوفة لعيون الحرَّاس أمام الكشافات الضوئية التي تتحرك ليلاً في كل الجهات.

ينام خضر حيث تنتهي قدماي، أعضاؤنا تتداخل ببعضها لضيق المكان، الأمر الذي يسبِّب عراكًا دائمًا بين معتقلين منسحقين ما كانوا يتخيلون يومًا أنْ ينحشروا في مثل هذا المكان كأنه قطعة من الجحيم، دائمًا يجد المعتقلون الأسباب للعراك، فالروح هنا أضيق من خرم إبرة بالكاد ينفذ منها الهواء.

لم يكونوا يسمحون لنا بالسهر بعد الثامنة مساءً، ننام باكرًا كالدجاج تحت أنوار الكشافات، وهدير السيارات العسكرية التي تجوب طرقات غير مرصوفة خارج جدار الأسلاك ليقوم بمقابله شريط شائك آخر أقاموا حوله حواجز ترابية وصخرية اقتلعوها من المكان بحيث يكون هذا هو حدود المخيم مع الفلاء، لم نكن نستطيع أنْ نرى شيئًا ما بعد الحاجز الترابي؛ لأنَّ مكاننا حينئذٍ يبدو كحفرة دُفنَّا فيها سلفًا بانتظار النهاية.

لم يكن الوقت متأخرًا، أو هو متأخر، لا فرق، في أي وقتٍ من اللَّيل أصحو كنتُ أسمع همس المتأرِّقين... اللَّيلة أحس بخضر ينفض نفسه ويتقلَّب على جنباته وكأنه يتألم، ثم بعد لحظة أخرى

أسمع شخيرًا مخيفًا يصدر منه كأنه زفرات الروح.

لستُ وحدي مَنْ هبَّ إليه، كنا مجموعة لا تقل عن خمسة رجال حضروا من أطراف الخيمة للوقوف على حاله، بيديه الاثنتين يضغط على عنقه، وهو يجأر والزبد يسيل من فِيِّه، كنا نحاول تثبيت يديْه ورجليْه اللتيْن كان يرفس بهما، قوة خارقة تسري في بدنه متخشبًا، نبذل أقصى جهد للسيطرة عليه وثني يديه كي تظلان مثبتتين إلى الأرض بعيدتين عن عنقه، نمسح وجهه بالماء، فيما أحد الرجال عند رأسه راح يقرأ الآيات القرآنية.

- اتركوني أذهب إليه...!

يجأر خضر بالصوت، وقد انتبهتُ بأننا في بقعة ضوء ترسلها كشافات الحراسة من كل صوبٍ، هدير سيارات عسكرية هي الأخرى تسلّط كشافاتها، وهي تقترب نحونا مع صوت نباح الكلاب، ثم تتوقف بمقابلنا خارج الأسلاك، ونسمع صوت خرطشة بنادق آلية مع صوتٍ يسأل:

- ماذا يجري عندكم أيها المجانين؟

- أحدنا ألمَّتْ به نوبة عصبية، هل يمكن المساعدة؟.

نسمع قهقهات جنود "إسرائيل"، ثم يعاودنا نفس الصوت:

- ناموا أيها الحيوانات.. ناموا.

••••

بعد هذا الحادث صرتُ أشعر بتعاطفٍ أكبر مع خضر، فأَوْلَيْته اهتمامي، حتى إنني ساعدته على الاغتسال، وحلقتُ له لحيته مرة عندما رأيتها تتطاول على وجهه بعشوائية وشممتُ منها رائحة كريهة...

كلما نظرتُ إليه أراه ساهمًا، قليل الكلام والطعام... الطعام القليل الذي يخصصونه لكل فردٍ منا كان لا يستطيع تناوله كاملاً أو تصد نفسه عنه، فيمنحه لمعتقلٍ آخر بجانبه لديه شهية مفتوحة دائمًا للطعام.

كان يهزل بشكلٍ سريعٍ، والاصفرار صار سمة مطبوعة على وجهه، ينام طويلاً في النهار، برغم الضوضاء التي يرسلها المعتقلون في هرجهم ومرجهم وهم يرَّوحون عن أنفسهم ويقتلون الوقت، أما في اللَّيل، فهو قَلِقٌ منكمشٌ على نفسه يُنَكِّس رأسه إلى الأرض، أو يحدِّق في نجومٍ تنوص في طرف السماء، على أننا تحت الخيمة لا نستطيع أنْ نرى ألَق كبدها المشع.

في يومٍ التقتْ عيناي بعينيه، ابتسم في وجهي على غير عادة، وقال:

ـ اقترب منِّي يا ابن عمتي لأقول لكَ!.

إذن هو كان يعي بأنني أقربه من بعيد، لم تكن أُمي شقيقة لوالده بل كانا من نفس العائلة الكبيرة والمشتتة بين البلدان.

اقتربتُ منه متوجِّسًا، لدي فضول كبير لأنْ أسمع ما سيقول

خاصةً عن نوبته العصبية، إنْ كان يعي منها شيئًا... مال بوجهه ليكون قريبًا من أذني كأنه يحرص على أنْ لا يسمع أحدٌ بما سيأتي به:

ـ سنخرج من جهنَّم هذه أيام العيد!.

وجدتُ نفسي أُدقّق النظر بوجهه، كان كلامه واضحًا لي، بالرغم من أنَّ اللسان الذي نطق به كان أثقل مما تعوَّدتُ أنْ أسمعه منه من قبل.

وكان عيد الأضحى على الأبواب كما أخبرنا الجندي البدوي الذي يخدم في الجيش الإسرائيلي، وقد تعوَّد بين الحين والآخر في أوقات نوبته أنْ يقترب من السياج ليرمي إلينا ما تجمَّع لديه من أخبار.

هذا الجندي واحدٌ من جنود بدوٍ عديدين تطوعوا لنقل ما يعنينا من أخبار، على الخصوص ما يحدث في العاصمة التي ما زالتْ تقاوم وتفاوض في نفس الوقت، وكنا نعلّق مصيرنا على هذه المفاوضات.

• • • •

في ليلة العيد صَحَوْتُ من سهوة عين ربما قبل الفجر بقليل، سمعتُ البعض يهلّل ويكبِّر بخشوعٍ احتفاءً بالمناسبة غير آبهين

بأوامر الحُرَّاس بأنْ نخمد وننام، كانتْ تتناهى إلى سمعي جهشات مَنْ دفنوا أنفسهم تحت الأغطية ليداروا بكاءهم، فكل واحدٍ لديه تلال عارمة من الأحزان على مَنْ خلفوهم وراءهم من النساء والأطفال.. ها هو العيد يأتي عليهم، وهم في العراء فوق أنقاض البيوت المدمَّرة.

بإمعانٍ شديد أنظر إلى مكان خضر ولا أراه، أرفع نفسي وأتحسس أغطيته لعلَّه يكون تحتها، أو لعلَّ الخشوع شدَّه لأنْ يقترب من حلقة التهاليل، رحتُ أتساءل في داخلي إنْ كان ذهب إلى المراحيض لقضاء حاجته مع أننا ممنوعون أثناء اللَّيل من الحركة خارج الخيام.

اللَّيلة يصير المخيم معبد الأسرى، الأصوات الرخيمة تنطلق بالتراتيل والتسابيح من كل هدبٍ وصوبٍ، وتهزم إرادة السَجَّان الذي يلوذ بالصمت على مضض، اللَّيلة نشعر أننا نسترد أرواحنا ناصعة لا غبار قهر عليها ولا نُدوب انكسار، نتجلى بالصوت الواحد دعاءً إلى الإله الواحد أنْ يفكَّ قيدنا، ويجعل فينا قوة على التحمُّل تمكّننا من الانتصار.

نخرج من الخيام إمعانًا في تحدي الجنود الواجمين خلف الأسلاك، فنرى السماء قريبة تتلألأ بالنجوم، هالات بيضاء تسبح في الفضاء ولها سبيل لأنْ تهبط وئيدة وتتغلغل في الروح.

يأتي الصباح وكأنَّ خضرًا ما كان، وما كان يشغل تلك المساحة

التي تشخص الآن بالفراغ، أسأل عنه القريبين من مكانه، تتملكهم الدهشة مثلي، ويؤكدون بأنهم لم يروه يغادر مكانه، أو يخرج من الخيمة.

يحين وقت العدِّ الصباحي، الوقت العصيب الذي يأخذ فيه السجَّانون منَّا آخر شعور متبقي لنا من كرامتنا الإنسانية، كانوا يفتحون البوابة الحديدية، ويهبُّون إلينا كهبوب كائناتٍ رهيبة، وهم مدججون بالأسلحة ترافقهم الكلاب اللاهثة.
فريق الإحصاء يتألف من ثلاثة أما الباقون فهم حرَّاس يتوزعون حول الخيام، ويحصون علينا أنفاسنا، الروتين أنْ نقتعد على عجيزاتنا متربعين بأنْ نطوي أقدامنا تحتنا، رؤوسنا منكَّسة إلى الأرض، وأيدينا متشابكة خلفها، والويل لمَنْ يجرؤ على رفع رأسه ولو قليلاً، والويل لمَنْ لا تطيعه قدماه على الانطواء، عندئذٍ سيتناولونه بركلات البساطير، وستنزل على جنباته ضربات الهراوات وأعقاب البنادق.

يحصوننا بصوتٍ عالٍ، الثلاثة خلف بعضهم البعض لتأكيد أنَّ العدَّ صحيحًا لا يختلف من واحدٍ لآخر. بعد أنْ عدَّ الثلاثة رؤوس خيمتنا اتفقوا على أننا ننقص واحدًا، إنه رأس خضر الغائب في الغياهب المجهولة.

لم أتخيَّل في يومٍ من الأيام كيف تكون فظاعة السجَّان حين يستتب به الغضب، غضب غير إنساني يحيله إلى حالاتٍ من

التوحش، وعلى حيواته المتحوِّلة يقوم جحيم المنسحقين.

أخرجونا إلى العراء، وقد استعانوا بقوة إضافية، جاءتْ تنهال علينا بالضربات من كل الجهات. هراوات وكرابيج تنزل علينا وكأنها اللهب المستطير، من كل جنبات أبداننا يتدفق الدم، أعضاؤنا مفككة، والعديد منَّا يتساقط أرضًا مغشيًا عليه.

تحت شمس نهار العيد كان لحمنا ممزقًا، مطروحون فوق الحصى يتغذى الذباب على جراحنا.

لم يتركونا وشأننا، بل ظلَّ حُرَّاس يحوطوننا، وهم يصوِّبون بنادقهم إلى رؤوسنا، فيما فرقة أخرى راحتْ تفك حبال خيمتنا لإزالتها، كانوا يريدون أنْ يتأكدوا إنْ كان يوجد نفقٌ حفرناه تحت الأرض قد حمل خضرًا إلى فضاء حريته.

بعد ذلك ولساعاتٍ طويلة، وبالرغم من آلامنا الشديدة، كنا نستطيع أن نرى مروحيات الهليكوبتر، وهي تجوب سماء المكان، والسيارات العسكرية خارج الشريط الشائك لا تهدأ عن الحركة، وقواتٍ مجندلة تضرب فيما يبدو طوقًا ممتدًا باتجاه الخلاء الخارجي للمخيم في بحثٍ مهووسٍ عن خضر.

لثلاثة أيام، وهم يقيمون لنا حفلات الضرب مع نوبة العد الصباحي، ثم يستدعوننا إلى خيمة التحقيق الواحد تلو الآخر، يريدون منَّا أجوبة تحلُّ لهم لغز اختفاء خضر.

عصر اليوم الرابع، نصبوا لنا خيمة في فسحة أضيَق من مكاننا الأول بجانب المراحيض، كأنه عقاب لنا بأنْ نعيش الضيق مع الرائحة الكريهة، وقد تركوا مكان خيمتنا الأول فارغًا.

فيما بقي لي من شهورٍ في معتقل "أنصار" هذا، واظبتُ على أنْ لا أبرح مكاني في طرف الخيمة، ونظري لا يفارق مكان خيمتنا الأول لعلّي أرى طيف خضر يظهر لي فجأة، أو أراه متجسدًا هناك لم يغادر مكانه أبدًا، ليقترب منّي ويهمس لي إنْ كان في الأفق من عيدٍ يشهد حريتنا.

طيْف رامبو

أنا رجلٌ ميِّت، قتلتني قذيفة أسقطتها طائرة أمريكية حينما كنتُ في زيارة لبغداد، مدعوًا للمشاركة في مؤتمر ينعقد للبحث في حداثة الرواية العربية.

لم يكن بوسع الناس دفني لأنَّ الساعة حينئذٍ دقتْ إيذانًا بالحرب، وصار الكل مشغولاً بنفسه طلبًا للنجاة؛ لذلك ها أنا ميت بلا قبرٍ يأويني، أنا روحٌ تجوب الأرض والكواكب والسموات السبع.

ما أذكره مما كنتُ، أنني كاتبٌ عربيٌّ تستوطن جسده أمراض عديدة أهمها: انسداد الشرايين، وضغط الدم العالي، بالإضافة إلى السُّكَّري، وغيرها من الأمراض العصرية... أحوالي المعيشية تظل عند الحافة بالكاد تطعمني أو تكسوني أو توفِّر لي السجائر الكثيرة التي أحتاجها يوميًا لتحفيزي على ما أعتقد إلى الكتابة، وبسبب ضيق الحال هذا لم أرتبط بعلاقة زوجية مع أنني جاوزتُ الأربعين.

شظايا القذيفة التي اخترقتْ جسدي لها مفعولٌ غريبٌ، تمنح اللذة للموت والقوة للروح، وأي قوة، قوة خارقة تسري في روحي التي ما عادتْ لي.. لي منها الوعي بالعصر الأمريكي الحديث،

وهو يرخي سياسة العولمة على كوكبٍ متهالكٍ، هذه السياسة التي تعلن أنها تريد أنْ ترتقي بالكوكب إلى ملكوت من الديمقراطية، للحرية فيه جنَّاتٌ تجري من تحتها أنهار دماء المارقين، والمتخلّفين عن ركب الحضارة.

شعور روحي بالقوة، قادني في بداية الأمر للتسلُّل إلى عتمات صالات دور السينما التي تعرض الأفلام الأمريكية من أجل تنمية قدراتي المكتسبة، ولكي أُلِمَّ بما فاتني من تقنياتها، بيد أنَّ في حياتي حين كان لي عقلٌ هيَّأه لي الخالق كبشريٍّ لم أكن أُشاهد أفلامًا أمريكية، وأدعو الناس في كتاباتي أنْ يغمضوا أعينهم عنها حفاظًا على عقولهم من لوثة عقدة التفوُّق وجنون العظمة.

ولكنْ ها هي روحي، التي خرجتْ من جسدي المثقوب بالشظايا قبل أنْ يفنى، ولا يعرف له أي شاهدٍ، أو أي ترابٍ في مكانٍ ما.
قلتُ:
- ها هي روحي تقودني لأقع في السحر الأمريكي الذي تسكبه الأفلام، وما يشيعه الإعلام.

صرتُ مأخوذًا بأبطالٍ لا يموتون أبدًا، خيِّرون يتسمون بالفضيلة، ويؤدون مهماتٍ إنسانية عابرة للقارات لنشر العدالة، وذلك دائمًا حسب منطق الثقافة الأمريكية، التي تتسم بقيم ومعايير لا يتفق معها كثير من البشر.

البطل الواحد يواجه جيشًا كاملاً ويقضي عليه، يسيطر على مدينة؛ بل على بلاد كاملة؛ ويأتي بجبابرتها يخرُّون ساجدين تحت أقدامه، ويطلبون منه الرحمة والسماح.. مشاهد الأسطورة الأمريكية تحوِّل ميزة الجُبن عند الأرانب إلى شراسة الأسود، وتحوِّل النملة إلى كائنٍ يشتهي الصلصال، ويفترس مدينة شاهقة بناطحات السحاب.

شاهدتُ "رامبو" المُنتَج من قِبل تعميم العولمة، بطل بكل المواصفات، هالتني عضلاته المفتولة، تحت تأثير الهالة شعرتُ بانسحاق عظامي الأولى، وقد بدأتْ تنبت لي عظامٌ جديدة مستنسخة من عظام رامبو، ومتغذية من "همبرجر" بقري مئة بالمئة، ومسقيَّة إلى حد الثَّرَع من "الكوكا كولا" تلك التي إنْ سُخِّنتْ صارتْ لها نكهة البول البشري... كم كنتُ غبيًا في حياتي وأنا أُقاطع بكل جحود ما تمنحنا إياه أمريكا من بركات التغذية، تتغذى روحي عليها الآن فأصير رامبو، والفئران التي يُقدَّم لها نفس الغذاء تصير من فصيلة غوريلا تهرِّج في سيرك.

بعد قليلٍ من الوقت، وتماشيًا مع سُنَّة التطوُّر سأكتشف أنَّ رامبو الذي صرتُ طيفه ما هو إلا آدمي ضئيل أمام أبطال مبرمجين دمائهم من زيوت السيارات، ولا يحتاجون إلى حمل السلاح، بل هي أيديهم تطلق النار بشكلٍ خرافي، وتحيل العدو إلى رمادٍ برمشة عين، ونظراتهم الغاضبة حين يرسلونها، يرسلون معها إشعاعات مدمِّرة تسوي مُدنًا محصنة بالأرض وتحيلها إلى فناء.

طيفي لم يستقر على هيئة معينة، ولم يتخذ مكانًا للإقامة بين الخرائب أو في الكهوف أكثر ما يستهويني أنْ أتخذ الطير شكلاً لي، وأظلُّ أجوبُ الفضاء.

عجينة رخوة من ذراتٍ غريبة كنتُ أتشكَّل، بما يجعل العبث ذاته منخطفًا بمآلاتي اللا متناهية، وما أنا إلا طيفٌ مسحورٌ، ربما طفل يرضع من أثداء أمريكية، هي تلك الشظايا التي اخترقتني في بغداد.

••••

مأخوذ بالانبهار بقاتلي صرتُ أتتبع خطاه، أطير مع طائراته، وأحطُّ على بوارجه البحرية، أدخل إلى مدمراته؛ المعلومة منها والسرية، أكتشف عوالم من الرهبة، أنا الخفي بالموت كنتُ أُصاب أمامها بهلعٍ شديدٍ يقتلعني من موتي، فكيف حال الأحياء الذين يسيرون بسلامٍ في مُدنهم، ويمضون خلف انشغالاتهم اليومية، وهم يتتوقون للحياة، كيف إنْ واجهوا هذه الترسانة المبيدة للمخلوقات؟ مع يقيني الغيبي أنَّ المواجهة لن تحدث وجهًا لوجه، أمريكا لا تقاتل وجهًا لوجه، هي ترسل شياطين الموت المعدنية المعبَّأة بعناصر الفناء تعمل على الأزرار، أزرار وردية، وأزرار بنفسجية، أزرار متعددة الألوان تتوهج بالبهاء

الأمريكي.. غبطة الجندي أنْ يضغط على الأزرار.
أرى الجنود يظهرون سعادة عارمة حينما تأتيهم الأوامر بالتحرُّك لتنفيذ المهمات، يتراقصون بتهتُّك كأنهم ذاهبون إلى سهرة ليلة السبت، ينفلتون كالوحوش المأسورة منذ وقتٍ طويل، وها قد فُتحتْ لها الأقفاص لتأخذ الطريق إلى الحرية بما ينتهي إلى إبادة الآخرين.

الإبادة الرشيدة بما تحلّله التقارير الإعلامية لمستهلكين لا يفكّرون ويتركون أمر التفكير إلى مؤسساتهم الديمقراطية الواقعة تحت سيطرة رأس المال.

في أبعاد تحقيق المصلحة، وتحت هستيريا التفوُّق تصبح المجزرة عملية تطهير للكون من إرهابيين مارقين، والكارثة الماحقة تلك اللوحة التي يلوِّنها العسكريون في "البنتاجون" كإنجازٍ سريالي عظيم ينضم إلى عجائب الدنيا الكثيرة التي ما عادتْ تُحصى.

كنتُ بين العجائب أطير، والنجوم ترمي عليَّ إشعاعاتٍ تتألق في خلاياي بحنانٍ له طاقة مغناطيسية، أحسُّها تومض في عناصري المكتسبة من الموت لأظل منجذبًا إلى الغياب، وفيه أُضيء ذاتي عبر الزمن فيتدلى التاريخ.

فوق "أبو غريب" بدا لي أنَّ الأمر غريبًا، مصدر إشعاعاتي يصيبها احتكاكٌ ماسي، فتُصاب نفسي بالاضطراب.. في الدهاليز

المظلمة أرى مجندة تسحب خلفها ما بدا لي أنه إنسان يحبو خلفها، وهو مربوط من عنقه بحزامٍ صُنع من أجل الكلاب، رجال شوَّه الذُلُّ معالمهم، وقد جعلوهم يتشابحون وهم مقيَّدون بأسلاكٍ كهربائية والكلاب تتفلَّتْ عليهم، عراة مغتصبون لحث غبطة المجندات وهُنَّ يمْنحَنَّ الصورة ابتساماتٍ تفيض بالشذوذ.

حقوق الإنسان.. هل هي وصفة لطبخة أمريكية يدخل فيها لحم الإنسان المطحون يضاف إليه مسحوق الكرامة الإنسانية المبهَّرة؟ كيفما تكون فظاعة الذل، وإقصاء الآخر إلى آخر الظلُّمات، يا لها من وليمة فاخرة خُتمتْ بماركة مسجلة "ميد إن يو اس إيه".

روحي قلقة وطيفي لا يطيق.

هل حدث خطأ في فِهم العالم لرسالة الرئيس المؤمن، الذي خاطب العالم بأنَّ الله خاطبه وأمره أنْ ينشر قيم أمريكا على أجنحة الكائن الخرافي الذي سُمِّيَ بالعولمة، هل فِهْمُ العالم ظلَّ محدودًا، ولم يستوعب ماهية الديمقراطية؟ لذلك راحتْ أمريكا تسقيه بالدم كي تنبت عرانيس الحرية.

الحرية.. هذا هو السؤال، كيف تستهدي البشرية إليها، والسجَّان الأمريكي في أبي غريب وفي جوانتانامو، وفي أماكن أخرى سيئة السمعة قد أطفأ شعاع الدليل إليها، فيما هو نسي ضوءًا ضئيلاً ينوص على السهم الفسفوري الذي يؤشِّر إلى وجع

الحضارة المتدرِّنة من حالة فقدان حقيقي لروح الإنسان، أو هي بحنين إلى العصور الهمجية الأشد ظلمة؟.

خطأ أفراد.. ستنبري الماكينة الإعلامية في التبرير كلما وقعتْ الأسطورة في الخطيئة، نصدِّق لو أنَّ النهج ذاته لا يتكرر في أماكن أخرى، لو أنَّ السلاح الفردي لا يتبختر في ظل القانون، ويستبيح حياة الأبرياء في المدارس والمحلات التجارية.

يتحوَّل طيفي إلى أفغانستان بعيون أطفأها البكاء، وكان بالكاد يتلمس سبيله وسط الفضاء المدلهم، ولكنْ بالعيون المكتسبة القادرة يستطيع أنْ يرى الجنود كيف يتبوَّلون على جثث الموتى، الجنود إياهم دون جنود الحلفاء الذين وقعوا في مكيدة الولاء للعولمة... الحلفاء الذين أُخترقتْ جدرانهم وأُستبيح فضاؤهم لتنفذ برامج التنصُّت حتى إلى غرف نومهم، ربما للاستماع إلى بوح السيدة الألمانية الشاكي عن حبيبٍ هاجرها لكثرة مشاغلها الحكومية... العالم صندوق زجاجي شفاف للفُرْجَة، وأمريكا شرفة تطلُّ على مشهد الفُرْجَة.

أمريكا تُخلخل عقل العالم، هذا الرقي، وهذه الفخامة، وكل هذه الأناقة كيف تتساوى مع ممارسات دنيئة هي من طبائع الحيوان المتوحش، وهناك حيوانات صارتْ تأنف من هذه الممارسات، الكلاب توصلَّتْ إلى أنْ تذهب إلى مراحيض خاصة للتبوُّل.

أين يكون هؤلاء الجنود من القيم الإنسانية التي مُهرتْ بتواقيع الأمم؟.. هل يكونون بطاريات مشحونة بالكراهية؟

ـ ويحك أيها الطيف، ألم يصلك حديث الصناعات، والإنجازات الطبية، الفيزياء والكيمياء، الارتقاء إلى الفضاء، العبقرية التي تمسح وجه الكون بالخَلق والابتكار، حتى تخفِّيكَ، وطيرانكَ هذا يتم بعِلمنا لأنكَ أُصبتَ بقذيفة ذكية، كل ما في الأمر أننا لم نستطع السيطرة على عقلكَ، بقيتَ في دائرة البدائية ترى الأشياء حسب قيمكَ ومعاييركَ البالية والمتخلّفة، أنتَ تجربة، لستَ أكثر من تجربة آن أوان إنهائها!.

وقبل أنْ يصل صاروخٌ انطلق من مدمِّرة في عرض البحر ليصيب طيفي لينفجر في الفضاء، ويتحوَّل إلى ذراتٍ دقيقة متطايرة في كل الاتجاهات تبحث عن السبيل إلى التلملُم في جثتي، التي سأكتشف أنها لم تكن موجودة أصلاً.. صاحتْ روحي المتألمة في البرية:

ـ مهما يكن، كل هذا لا يساوي دمعة طفل من هذا العالم يذرفها بسبب السياسة الأمريكية!.

العالم يتألم.. يئن مسحوقًا من حروبكم.

ليتكم تشعرون!.

زهرة الجنون

النافذة مشقوقة دائمًا إلى السماء، يتركها على هذا النحو صيفًا وشتاءً، حينما هي تأتي تجدها هكذا بما يكفي لأنْ تمد يدها من خلال الشق وترفع المِغْلاق لتنفتح النافذة.

لم تكن النافذة تطلُّ على سطح البناية مباشرةً حيث تقف هي عند الحافة، لذلك كان يلزمها أنْ تُقدِّم قدمًا في الفراغ، وهي مستندة على الأخرى، ويديها تتشبث بقضيبٍ من الحديد دُقَّ في الحائط ليس لسببٍ ظاهر، ترفع قدمها حتى تصل إلى حافة النافذة، ثم وبخفَّة غريبة وبرفعٍ كُليٍّ لجسدها تجد نفسها قد أصبحتْ داخل الغرفة، تذهب إلى الباب وتفتحه وتعود إلى غرفتها المقابلة لتحضر الأشياء التي ستتركها له.

سيأتي متأخرًا في المساء، وغالبًا ما يكون ثملاً، وما إنْ يقع نظره على التغييرات التي طرأتْ على الغرفة حتى يطير مفعول الخمر من رأسه.

سيكتشف أنَّ يدًا حانية قد صنعتْ هذا الترتيب للغرفة، النظافة قد طالتْ كل الزوايا والأثاث، الملابس التي كانتْ مرمية بفوضى متقنة، ها هي مطوية على رفٍّ خشبيٍّ، ولها رائحة دواء الغسيل،

هذا الطعام المُغطى بعناية لكي يظلَّ ساخنًا، وهذه الوردة الحمراء في مزهرية فخارية يراها لأول مرة في غرفته، ولا يذكر أنه اقتناها من قبل، حتى إنه لا يفكر باقتنائها لضيق يده.

أيُّ وعدٍ فردوسي يتحقق، هذا الذي يتجسَّد أمامه، أيَّة هِبَة هذه التي تحضر دفعة واحدة من حيث لا يدري، وكل ما تمناه في ليالي وحدته الموحشة يصبح حقيقة، وها هو يتراءى أمامه بلا غبشٍ.

ولكنَّ العقل، كيف للعقل أنْ يُصدِّق هذا العبث الذي يهدم نسق نظامه المبني بحميمية مع الوحدة، وخيالات القصائد التي يكتبها، وحياته سَيلٌ من التيه يجعل نهاره مشهدًا من السراب؟ وهو الرجل ذو الروح المتصحِّرة، تهتدي إليه هذه الرحمة، وتدخل غرفته والباب مغلق وهو غائب.. دائمًا وهو غائب، عقله أرجوحة وهو طفلها اللاهي.

قشعريرة من الخوف تنتابه، تحت وقعها يحدِّق بريبة في أشياء الغرفة ويصيخ السمع إلى.. لا شيء، فقط يريد أنْ يتأكد أنَّ ما هو فيه حقيقي، وأنَّ هذه غرفته التي يستأجرها منذ سنينٍ طويلة، منذ أنْ جاء إلى العاصمة ليرصف شوارعها ومقاهيها بقصائد ومقالات يشيِّد فيها للحداثة والحرية أبراجًا عالية، ومن هذه الصنعة التي لا يجيد سواها يظلُّ معدمًا بالكاد يجد قوت نهاره، سجائره وخمرته الرديئة خبط طيشٍ لذيذ يفضي إلى انتحارٍ بطيء.

سوى في كنف أمه لم يجد النعيم، وهذا كان منذ أمدٍ بعيدٍ، هي ماتت ودفنها بيديه، ليرتحل بعد عدة شهور إلى هنا، كما يرتحل طائر لا يطيق الخريف.. أمه في روحه طيف دائم التجلّي، ملاكٌ يسبِّح له البياض كرمزٍ للطيبة والخير، كم مرة وصفها على هذا النحو في قصائده المتناثرة على صفحات صحف المدينة.

- " هذا خير ما أنا فيه لم أنتظره منذ موت أُمي، ولا يصنعه الآن بشر إلا من صِنوها، أو ملائكة لا تظهر للعيان إنما لها الحضور الدائم على جنباتنا كما يؤكد الإحساس، أُمي قد ماتت ودفنتها بيدي، فمن أين يأتي كل هذا الخير؟.. لو أخبرتُ حكايته لأحد أصدقائي في المقهى لذهبتْ ظنونه بقواي العقلية، أي ملاك وجد الدرب سالك إلى غرفتي ورمى لي بياضه كي أقع متعرِّقًا في حيرتي ودهشتي...".

بالرغم من حاجته للطعام إلا أنَّ الوردة ظلَّتْ هي الأكثر لجاجة في انبعاث السحر لطقوسٍ خيالية تكتمل بحضور امرأة، وهي في أوان شبقها لتحيله منسحقًا إلى عوالم من الشهوة.

• • • •

لم ينتبه يومًا إلى جارته، لم يفكّر بها على نحوٍ خاص، لولا الصوت الخافت في طرح السلام حين يلتقيان على درج البناية

لكانتْ بالنسبة إليه مجرد خيمة سوداء، أو قطعة غيم مكفهرة تمضي في سبيلها.

يمقت اللون الأسود، لذلك لم يجد في نفسه رغبةً في أنْ يعيرها اهتمامه، إنما هي كلما التقته ونظرتْ إليه من تحت خمارها تحاول أنْ تضم زنابق روحها التي تنفلش في تلك اللحظة، وتشعر أنَّ عليها أنْ تتماسك، ولا تجعل عاصفة الحب تجرفها بعيدًا، وهي تحس أنَّ قلبها ينخلَّع، وتظل لوقتٍ تجمِّع صورته في خيالها، تعيد الشريط في رأسها لمراتٍ، وهو يمر كالسهم بمحاذاتها غاضًّا النظر عنها لا يلوي على شيءٍ، هو هذا الشيء الذي يصيبها بالاهتزاز، ويجعل من أمر عدم الالتفات إليها أنْ يأتيها بالكرب ليخط قتامته فوق صفحات أحاسيسها.

هو لا يعرف أنَّ تحت هذا السواد تقبع روحٌ نضرةٌ لم يصل إليها ذلك الحريق، لو يقترب منها ستصارحه، وتقول له:

ـ "إنَّ هذا السواد ليس لسببٍ ديني، إنما أتلفحه لتغطية ندوب الحريق الذي طال وجهي قبل سنواتٍ، وأنا أخدم في واحدٍ من البيوت الكثيرة التي خدمتُ بها، ندوب أخجل أنْ أبدو بها، أُغطي الخجل كي يظل لي وجهٌ أمضي به حيث تتوفر لي المعيشة، ليس من السهل أنْ تُفتح الأبواب لوجهٍ مشوَّه، خاصةً أنَّ الأمر يتعلق بالشهية للطعام، مَنْ سيتناول طعامًا أعدته يدان مسلوختان تبعثان إلى القرف؟ لكنَّ العالم القاسي هذا لا بد في

النهاية أنْ يجد المرء المسحوق فيه ثغرًا طريًا ينفذ منه، أعمل الآن في بيت عجوزين حيث أقوم بكل الأعمال المنزلية قبل أنْ أعود ظُهرًا إلى حجرتي، وألتقيكَ على الدرج تمضي كالسهم حيث نهاركَ يكون قد ابتدأ".

تطمئن بغيابه لكي تنفذ إلى غرفته من خلال النافذة المشقوقة كل يومٍ لتهيئ له حين يعود في المساء كل ما ينتظره رجلٌ متعب من امرأته التي تنتظره، وقد جعلتْ البيت يسبح في فضاءٍ من الضوء تتلألأ فيه نجوم السلام وتفوح منه رائحة الشعور بالعائلة.

مرَّ وقتٌ على عقله وهو يتخبط.. من أين؟ وكيف؟.. ولكنْ ها هو الآن يجد نفسه مستسلمًا بخدرٍ لذيذ لهذا الغيب الذي يهمي عليه بالطيبات التي يلمسها ويشعر بها تسري في أمعائه، والشهوات القصيَّة التي تستحثها مخيلته كل ليلة أمام الوردة المتجددة.

مأخوذٌ بسحر النعمة يتواطأ عقله مع ما يرى، لذلك لم يفكّر بنصب شرْكٍ يؤدي إلى اكتشاف مصدر هذه النعمة، وما عاد يفكّر كيف يستنبط اليقين من هذا الغموض. ولم يعد ينتبه إلى نفسه كيف هي تدخل مدار الألفة مع هذه الغرائب اليومية، مما يجعله يكف عن طرح الأسئلة المؤرقة التي كان يحاول أنْ يستل منها أجوبة عقلانية عن الأحداث التي تصادفه، لقد أسلم روحه للعبث كأنَّ الحياة قصيدة سريالية لم يفكّر أنها ستنتهي في يومٍ من الأيام.

• • • •

روحه تحت سحرٍ كثيفٍ، ورأسه يرنُّ بالأمسيات الطيبة، حين عاد هذا المساء ووجد غرفته على حالها، ووردة الأمس ذابلة في بقايا ماء عكر، ولا طعام على الطاولة، وهو المهدود من الجوع.

في الخارج خَلِفَ وراءه رياحًا شرقية عاتية تحمل هواءً ساخنًا وثقيلاً، يثير غبارًا يصيب مرضى الصدور بالاختناق. ضيقٌ يضرب النفوس، ويستحث الناس للعودة إلى منازلهم على غير أوان، وممّا يجعل المسنُّون يحبسون أنفاسهم داخل غُرفٍ مغلقة، وهم يتمتمون بأدعية لأنْ يمنحهم الله خير هذه الرياح، أما شرُّها لتأخذه المشيئة الإلهية بعيدًا عنهم، وعن أحبائهم، وعن بني البشر أجمعين.

ها هو يسمع خبط الرياح على الأشياء المتروكة من غير تثبيت، حدس أنها تتطاير، وها هو صوت قرقعة المعدن يشقُّ الفضاء كلما حدث ارتطامٌ ما. تثيره الأصوات، وتجعل دمه يصطخب في شرايينه كأنه أنهارٌ هائجة وتفيض غاضبةً، آخذةً معها الأشجار وحتى الصخور.

فجأة يجد نفسه وسط عتمة حالكة إثر انقطاع التيار الكهربائي، رفع نظره صوب زجاج النافذة التي ما عادتْ مشقوقة إذ أغلقها عند عودته، فرأى المدينة كلها كتلة فحم هامدة بالسواد، ولم يجد في نفسه رغبةً لأنْ يُشعل شمعة، جلس في العتمة يستمع إلى أصواتٍ بدأتْ تتلاعب برأسه، ورويدًا تتعالى وتفرض نفسها على الأصوات التي تسببها الرياح في الخارج.

كان لديه وعيٌ ضئيلٌ لأنْ يربط أحداث المساء ببعضها، وراح يتساءل عن سبب قطيعتها له هذا النهار، عن غياب وردة تَوَلَّه في تجلياتها، عن نعمة طعام لم تمنحه إياه سوى أُمه وهذه الغريبة، التي تتركه له منذ شهور دون أنْ تفصح عن ماهيتها، لماذا لم تحضر اليوم؟ وما سر هذه الرياح في أنْ تحرك عصفها في هذا النهار بالتحديد؟.

هل سمع خبطًا على الباب؟ إذن ما هذا الارتجاج في رأسه الذي يدفعه غير متوجسٍ ليفتح ـ كما يتخيَّل ـ الباب لها كي تدخل وتفك لعقله طلاسمها وتتجسد له باليقين، ولكنْ في الخارج ليس سوى الرياح والظلام، وربما لمح طيف قطة شريدة تعض على فأرٍ أو وطواطٍ.

من أين يأتي هذا الشخير المصحوب بصفيرٍ غامض، وهو لم ينم بعد؟ أمن صدره الذي يعلو ويهبط أم من شقٍّ في جدار؟ يخونه عقله في هذا اللَّيل.

الأصوات جوقة يتناغم صداها الموحش، فلماذا يظل صوته بينها هو النشاز؟ يحتاج للألفة مع مكوّنات غريبة تتشكل وتفرض نفسها في غرفته وسط عتمة بدأتْ تطال حواسه، فيطلق صوته بالصراخ، فيخرج من أعماقه وكأنه من قاع بئر جف به الماء، أو هو عويل حيوان مجروح في غابة.

ينطلق كالسهم إلى خارج الغرفة، ويكشف عن صدره للرياح فيما رأسه إلى السماء، يريد أنْ يكون طليقًا في قلب العاصفة.

يصل صراخه إلى غرفتها فيقتلعها من ذاتها، فكرتْ أنْ تخرج إليه وتكشف له عن نفسها، تفضي إليه وتصارحه بمكنون قلبها، تعتذر عن عدم زيارتها لغرفته اليوم بسبب نوبة ربو ألمَّتْ بها، ومنعتها من الخروج حتى إلى عملها، إلا أنَّ الجرأة خانتها، أحسَّتْ بعجزها وتخاذلها يدفعانها إلى التقوقع على نفسها باكيةً، وجسدها تأخذه الرجفة والحمى، أما روحها النضرة فكانتْ تطفح وتفيض حزنًا وألمًا عليه.

الهستيريا تحوِّل حيواته إلى طيفٍ متثاقل الحركة، يتخبط في الظلام على غير هدى، حينها بعماءٍ تام راحتْ خطواته تأخذ هبوط درج البناية المتهالكة نحو الشارع، وكان يضم إلى صدره العاري وردة الأمس الذابلة، الشوارع خالية من المارة والسيارات، وما كانتْ الرياح تتوقف عن الصفير يمزجه هدير صوته الذي يشبه عواء ذئاب جائعة، فترتج أركان المدينة.

كانتْ ومضة خاطفة غير محسوبة، وكأنها خارج الزمن حينما جسده تعثَّر بالرياح كأنه ريشة.

لم يكن من الواضح.. كيف حدث ذلك؟ هل هو من ذات نفسه قرر أنْ يرمي بنفسه تحت عجلات سيارة ظهرتْ فجأة في المكان، أم أنَّ الرياح هي التي دفعته كريشة؛ ليستقر تحت عجلات سيارة حمراء مليئة بزهورٍ حمراء؟.

أنـا الشيخ عبد الواحد

استيقظ على صوتها، والسرير يهتز عند الهزيع الأخير من اللَّيل، محاولاً أنْ يفهم ماذا تقول؟ كان صوتها أجشًا، ويشعر به وكأنه يأتي من قاع بئر عميق، وهي تنتفض وتتقلَّب، حاول أنْ يلمسها باهتزازة خفيفة لعلَّها ـ كما خمَّن ـ أنْ تستعيد وعيها، ويزيح عنها كابوسًا ما، وحينها قد يتحول كلامها من هذيان متطاير إلى كلامٍ صحيح... لكنها جفلتْ مذعورة، ثم شخصتْ إليه كأنها تراه للمرة الأولى:

ـ مَنْ أنتَ؟.. وأين أنا؟

قالتْ بالصوت الأجش الذي يملأه النحيب، وعادتْ تطلق أصواتًا مبهمة يتداخل فيها الضحك بالبكاء، وهي لا تكفُّ عن نفض نفسها كدجاجة مذبوحة تطالع الروح.

بات الآن على يقين بأنها ليستْ في وعيها، لذا راح يُبسمل ويتعوّذ الله من الشيطان الرجيم، وهي ترتجف وتنتفض، ويزيد هو بتلاوة المعوِّذات، وبعض قصارى السُّور القرآنية القليلة التي يحفظها غيبًا.. وعندما يرى أنها لا تمنحها الهدوء ولا الكف عن اضطرابها، يكرِّر نفس الآيات بصوتٍ جهوريٍ أكثر جزمًا.

فكَّر بأنَّ الضوء ربما يعيد شيئًا من وعيها، فضغط على زر اللَّمبة مستحثًا النور إلى الإشعاع، لكنَّ صوتها علا بالزعيق طالبًا العتمة والسكوت.

قام من السرير، لينفث سيجارة، ولم يكن ينتبه إلى نشاف حلقه وهو يلهث، فقامتْ خلفه تخطو على خطاه إلى المطبخ، ولم يكد يُشعل سيجارة حتى سمع صوتها الأجش طالبًا أنْ يشعل لها واحدة.

على الطاولة تحت نور لمبة المطبخ استطاع أنْ يرى وجهها بوضوح أصفرَ وشاحبًا، يوحي كأنَّ صاحبه قام من الموت للتو. يراها تعضُّ على فِلتر السيجارة، وتسحب منه أنفاسًا عميقة، وهي تغمض عينيها حتى يلحظ تجمُّر الاشتعال على أكثر من العادة.

ضحكٌ متواصل يمسكها حتى لا يستطيع هو الآخر أنْ يتماسك، فيجد نفسه يشاركها الضحك دون أنْ يفهم له أسبابًا، لكنْ فجأة يتجمد الضحك في فيِّه تحت صدمة سؤالها:

- مَنْ أتى بي إلى هنا؟

هنا بيته وبيتها ولا شيء ينتمي إلى عالم الغرابة، ولكنَّ كل الغرابة فيما يراه من تصرّفاتٍ وحركاتٍ تأتي بها في هذا الليل، وراح يتساءل في داخله عمَّا يجعل المكان غريبًا عليها، وكيف تتوه عنه ولا تعود تعرفه، وهو زوجها منذ عدة شهور.

السعادة لها طريق إليها في النهار، يراها سيدة بيت مثالية، وهي تقوم بأعباء المنزل بخفة ونشاط، إنها تجد دائمًا ما تقوم به باندفاعٍ عارم حتى يشعر أنها تقوم بذلك بتأثير هواجس لا يستطيع هو أنْ يلمسها أو يراها.

لا يرى غبارًا على الآرائك والطاولات، وهي تحمل منفضة الريش، ويرى الأرض نظيفة من قبل أن تبدأ بسحب المكنسة الكهربائية من غرفة إلى أخرى.. هل هي هواجس النظافة؟.. ربما.

ضوء النهار سيمحو ما تسطِّره عتمة اللَّيل، ستعطيه إشارات عديدة وواضحة عن طبيعتها الطيبة، امرأة مثل الوردة لها نسائم الشذى، ولها وخز الأشواك، لها انفتاحاتها المؤدية إلى الرونق، ولها انكماشاتها المؤدية إلى الذبول، والأهم أنها تعرف كيف تتجسد خلال النهار؛ على عكس ما هي في اللَّيل تمامًا.

في النهار هي امرأة تشعُّ بالصحة والقوة، وتذكِّره باعتلاله وضعفه، وهي تأخذ على عاتقها تنظيم أدويته المتعددة، وتُقدِّمها إليه في مواعيدها كل يومٍ، لولاها سينسى، أدوية لضغط الدم العالي، وأخرى للقلب والسُّكَّري، تجتمع بجسده الأمراض دفعة واحدة بدون سابق إنذار.

كانتْ امرأة قادرة على الوصول والتغلغل في دمه، نعمة أو نقمة، امرأة من ماءٍ ونار تستطيع أنْ تُحيل حياته إلى جنَّة أو إلى

جحيم، ذلك حسب أحوال وتفاصيل الحياة.

لم يكن يلاحظ إنْ كان يعنيها أمر انزعاجه من نشاطها شبه اليومي الذي يراه فوق العادة، لا تهتم إنْ كان منكبًا على الكتابة أو يستمع إلى نشرة أخبار من التلفاز، وهي تفلت صوت زعيق المكنسة الكهربائية، سعادتها أنْ تنجز ما تعتقده أنه واجبٌ عليها، وعليه أنْ ينصاع لطلبها برفع قدميه عن الأرض إنْ كان أمام التلفاز، أو مغادرة الغرفة التي جعل منها مكتبًا يختلي فيه حينما تُلِحُّ عليه الكتابة، ولا همَّ لديها إنْ هي كنّسَتْ أفكاره مع ما تُكنِّسه من غبار الغرفة.

• • • •

كانتْ سيجارته عند منتصفها حينما قالتْ له، وهي ترمي بعقب سيجارتها بعبثٍ على الطاولة، وليس في المنفضة:

- أشعِل لي واحدةً أخرى!.

- إنكِ تدخنين بشراهة.

- مَنْ؟ أنا؟!... هو الذي يريد.

ارتبكَ، وانفتحتْ حدقتا عينيه، وفغر فاه دهشةً مما يسمع، وراح يفكّر فيما تقصده من كلمة "هو"... سألها بصوتٍ منخفضٍ، وهو يشعر بالذعر:

- مَنْ هو؟

ـ هو، يريد قهوة أيضًا!.

وجد نفسه ينصاع لطلبها، ويقوم ليُلقّم الماكينة بالماء والبن، وهو لا يزيح نظره عنها خوفًا من أنْ ترتكب ما يمكن أنْ يؤذيها، أو ما يشكّل خطرًا عليه، وربما على البيت كله.

صبَّ القهوة في كوبين وجعل كوبًا آخر للماء، ناولها واحدًا راحتْ ترتشفه بنهمٍ غريب وهي تصدر صوتًا يبعث على الاشمئزاز، ثم تتناول كوب الماء وتشرب نصفه، أما النصف الآخر تسكبه على رأسها، وهي تصدر أصواتًا تدلُّ على انتشائها وتطالب بالمزيد... زجرها وهو يتصنَّع الغضب، فطلبتْ أنْ يُشعل لها سيجارة جديدة.

أشعل لها ثلاث سجائر أخرى حسب طلبها، دخنتها وهي مغمضة العينين مع آخر رشفة لها من القهوة، قالتْ بصوتها العميق، وليس بأي صوتٍ آخر:

ـ أنا الشيخ عبدالواحد من الهند، قهوتكَ طيبة وليس لدي نيَّة لأذيَّتكَ!

انعقد لسانه، ولم يعد يجد شيئًا يقوله سوى أنَّ الذعر بدأ يتنامى في داخله، ثم عاد صوتها:

ـ يدبُّ فيَّ النعاس، أريد أنْ أنام.

أمسك بيدها وسار بها حذرًا إلى السرير، وهو يتمتم بالبسملة والحوقلة.

ـ نادي عليَّ إنْ احتجتِ لشيءٍ.. سأجلس لبعض الوقت.

كأنها لم تسمعه، بلحظة كانتْ مغمضة وشخيرها بدأ يتعالى، يشعر أنَّ أركان بيته تهتز، حقًا إنَّ ابن عمتها كان قد أخبره بنوباتٍ عصبية تنتابها بعد طلاقها من زوجها الأول، ولكنْ جاء متأخرًا، جاء بعد تحرير عقد القران بأسبوع تقريبًا، وكان هو على أهبة السفر، جاء كما يفعل الأصدقاء ليودِّعه، ورمى الخبر بوجهه، وقبل أنْ يبدي أي ردة فعل بادره بالتتمَّة السعيدة على أنها شُفيَتْ الآن... ولكنْ ها هو يشهد نوبتها الأولى في بيته.

لشهورٍ طويلة كان يفكّر لماذا خبَّأوا عنه مرضها، لماذا لم يكونوا واضحين كما كانوا واضحين في ذلك المساء؟ ووالدها يلف رِجلاً على رِجل، وهو يضع بوجهه شروطًا: مُقدَّم ومُؤخَّر الزواج، يريد لابنته مهرًا عاليًا، وهو يقارن نفسه بشخصية مهمة معروفة، يتذكر قوله:

ـ لا نريد كما أراد الأستاذ لابنته البِكر وهي طالبة جامعية، نحن يكفينا خمسة عشر ألف دولار كمؤخرٍ للصداق.

يعتقد والدها بذلك أنه يراعي وضع ابنته كمطلقة، وهي لم تنل من الدراسة إلا سنوات من الابتدائية.

أراد أنْ يطلق لسانه بالاحتجاج على المبلغ المقترح، لكنَّ والدتها عاجلتْ بالتعليق:

ـ كلام.. كله حبر على ورق، مَنْ يدفع هذه الأيام مؤخرًا؟.

فما كان منه إلا أنْ يهز رأسه كعلامة على الموافقة، وكان يعلم في سِرِّه أنَّ أحدًا من أهله لو كان يرافقه إلى هذه الجلسة لما تمَّتْ الموافقة بكل يُسر، وربما إنَّ عَقْدَ الجلسة من الأساس سينفض دون إتمام مشروع الزواج كله، سينتفض كبار السن عند سماع رقم المبلغ المطلوب، سيقولون لوالدها أنْ يتقي الله، فالعروس امرأة مطلقة ولا يجوز لها ما يجوز للبنت البِكر.

يتذكر الآن، وهو أمام مرآة نفسه، يجلس في العتمة، وصوت شخير زوجته يصله واضحًا.. لماذا تأخروا بإيصال خبر مرضها؟ يُقرِّع نفسه متسائلاً:

- هل لو تناهى إلى علمه خبر مرضها في الوقت المناسب هل كان سيرضى بها زوجةً له؟

لم يدرِ كم مرَّ من الوقت حين انتبه لصوتها يناديه، فهبَّ إليها مسرعًا، كانتْ قد تركتْ السرير، والتقى بها في الرُّدهة ما بين المطبخ وغرفة النوم. عانقته، فأحسَّ بحرارتها المرتفعة، وهي تتصبب عرقًا، وكانت تقول:

- صباح الخير.. حبيبي!

قبل أنْ يقول شيئًا، أردفتْ بصوتٍ مجهد يغالبه البكاء:

- لقد تبوّلتُ في ثيابي على السرير.

نظر إلى وجهها مدققًا، أيقن أنها صَحَتْ من غيبوبتها، وانتبه من خلال زجاج النافذة إلى اللَّيل في الخارج يُودع عتمته الأخيرة.

المرأة التي أشعلتْ الجحيم

لم تسمح له بزيارتها في المستشفى، ربما لتزيد الحريق في قلبه، وهو لم يطق أنْ لا يعرف أخبارها، امرأته التي أشعلتْ بوجهه الجحيم انفكاكًا من علاقة زوجية تعصف بها المشاكل التي لها أبواب وأبواب، كان كلما أغلق بابًا طلبًا للستر تفتح عليه بابًا جديدًا تدلف منه سهامًا تنخره بالثقوب.

الصبر الذي يجيده كانتْ هي لا تعرف منه شيئًا، وهي تسوق الشكوى من مطلع النهار إلى آخر اللَّيل، هذا إذا نامتْ لساعاتٍ قليلة دونها هي ساهرة مع السجائر، وأكواب القهوة تشكو قلَّة النوم.

وكانتْ مؤخرًا قد أدمنتْ مشاهدة أفلام الرعب، تجلس أمام التلفاز وحيدة، وهو يستطيع أنْ يسمع شهقات الخوف التي تصدرها من حينٍ لآخر تصله إلى الغرفة الأخرى وهو منكبٌّ على الحاسوب، في ذروة مشاهد الرعب تصرخ عليه مناديةً إياه ليكون معها، فيحاول ثنيها عن مشاهدة هذه الأفلام ولكنها لا تستمع إليه، ويستغرب من حالها هذا كيف تَألف هذه الأفلام، وهي بالعادة خلال النهار تصاب بالذعر من كلبٍ عابر، أو من حشرة تزحف

على أرضية المنزل.

أول هذه الشكاوى هي شكوى السماء، السماء التي لا تستجيب لدعواتها وصلواتها في أنْ يهبها الله طفلاً أسوةً بكل النساء، وكل مخلوقاته التي تتناسل دون انقطاع...

ـ لماذا أنا؟

على لسانها السؤال كالعلقم، وبعد ذلك لو اجتمعتْ لها حلاوة الدنيا كلها فلن تزيل مرارة الحرمان.

وكان يخطف الصفو من بين الغيوم ليبدي لها تعاطفه ويستزيد بأنه محروم مثلها، وكأنَّ القدر جمعهما في هذا العُسْر ليكونا عبرةً للآخرين.

بعد شكوى السماء تصير جميع أنواع الشكاوى مباحة لها، لها وحدها، لأنَّه هو سيلوذ بالصمت المطبق على معاناته.. كان يقدِّر أنها ليستْ في موقع المتعاطف مع الآخرين، وهي تسرد آلامها بفيض البحار الهائجة، شكاوى لا تُحصى ولا تُعد.. بدأتْ تقطع حبال التواصل فيما بينهما، تسرد هواجسها وارتيابها من عوالم غير مرئية، حتى تحلَّ الكوابيس، تقوم في اللَّيل تقطع السكون بصراخها، تقول له:

ـ في البيت رجل غريب، في تلك الزاوية يقف.. انظر، إنه يراقبنا بعينيه الحمراوين.

ينظر وسط العتمة إلى أرجاء الغرفة فلا تقع عيناه على أي شيءٍ

غريبٍ... تحتضنه حين يطمئنها بأنَّ ما تراه محض خيال من كابوس، وتضغط بكلتا يديها الملفوفتين حول جسده قائلةً:
ـ احتضنِّي بِشدة.. ولا تبتعد عني!.

••••

إلا أنَّ بعد أيامٍ هي التي ستقرِّر الابتعاد عنه، ستقول له:
ـ إنكَ رجل لا تُطاق.. أريدكَ أنْ تُطلقني.

كان يعرف أنَّ بعض تصرفاتها لا تخضع لتفسيراتٍ منطقية، لذلك هو لم يكن يمد الحوار معها بعيدًا إلى حدِّ المواجهة، ولا يحاول مجادلتها، لأنَّ كل مجادلة بينهما فيما سبق كانتْ تنتهي بخسارته لغياب المنطق، كان يترك لها الأبواب مفتوحة لعلَّها تجد السبيل لما تعتقده مناسبًا ومريحًا لها.

عقدتْ الدهشة لسانه وسط جفاف حلقه، هي لم تنتبه كيف صار وجهه كورقةِ خريفٍ صفراء، ثم يمتقع مثل رغيفٍ محروق، ينهار على أقرب كنبة فيما هي راحتْ توضِّب ثيابها وأشياءها في حقيبة، وهي تتمتم زاعقةً بالشكوى، وتكيل اللعنات على حياة قاسية.

كان يعرف عنادها إنْ هي قررتْ أمرًا، فاكتفى أنْ اقترح عليها أنْ يخرج من البيت لساعاتٍ تكون هي خلالها قد راجعتْ نفسها، لكنها ردَّتْ عليه:

ـ تخرج أو لا تخرج هذا ليس شأني، أو دعني أقولُ لكَ: اخرج وابحث لنفسكَ عن امرأةٍ قادرةٍ على الإنجاب.

يقود سيارته باتجاه الشارع المحاذي لشاطئ البحر، هناك تعوَّد أنْ يدفن همومه كلما ثقلتْ روحه بها، يفتح صدره للرياح، ويستطيع أنْ يبكي، أو يطلق صراخه بوجه البحر محتجًا دون أنْ يحسَّ به أحد، ثقوب جسده يحس بها حارقةً من تأثير أطياف الملح المتناثرة مع رذاذ الأمواج، سؤالها الدائم هو سؤاله أيضًا:
ـ لماذا أنا؟

حينما تذهب الخليقة إلى التناسل، يذهب وإياها إلى المناكفات وسوء الفهم الصارخ، إلى عواصف العبث المتوالدة بعدم اليقين.

تُجْمع التقارير الطبية بأنَّ لا مشكلة تمنعهما من الإنجاب، فمن أين يأتي هذا العدم؟ ومن أي غيبٍ يأتي هذا الأذى للروح يجرحها ويشوِّهها، يقيم فيها أعراس الألم والشعور بالنقص والحرمان؟

قالتْ له مرة:

ـ اشتري لي دمية أجعلها طفلتي المدللة!.

بكى سِرًّا على حالها، وبعد ذلك سار بها مراتٍ عديدة إلى عياداتٍ مختصة بالتلقيح، وعندما تنتهي طقوس حثّ الرحم لأنْ يحمل زهرة جنينية إلى فيضان عابث من الدم، كان عقلها يفيض بصرع الصدمة، وعليه أنْ يعيش معها على وقْعِه لأسابيع

طويلة، ولم يكن من أي تفسير علمي يَهبُ الروح السكينة.. وفي صحوٍ نادر كانتْ تذهب إلى الصلاة، وهي تبتهل إلى السماء بالدموع.

بلا مللٍ، وبكل إصرارٍ يطير بها إلى خارج البلاد، لعلَّ العيادات هناك تملك تقنية متطورة غير متوفرة في هذه البلاد التي مازالتْ تنظر إلى عمليات أطفال الأنابيب بنظرة من الشك والريبة إلى حدِّ الفتوى بالحرام، ولكنَّ الخسارة كانتْ تمضي إلى منتهاها، وكأنَّ الخسارة هي هذا القدر المحتم.

حلَّق نورسٌ أبيضُ بالقُربِ من رأسه، شعر باصطفاق جناحيه مما أيقظه من خواطره، لم يستطع أنْ يُقدِّر كم ساعة مرَّتْ وهو واقف وقفته الغريبة فوق الرمال، فعاد إلى سيارته يقودها صوب البيت، وقد حرص أنْ يمسح دموعه أو أيَّة آثار لبكائه أمام البحر، ببصيص من أمل كان يمنِّي نفسه أنْ يجدها قد غيَّرتْ رأيها بأمر الانفصال عنه.

الهدوء مطبقٌ على البيت، شعر به منذ أنْ فتح الباب وتخطى عتبته، لم يكن يسيرًا أنْ يتقبَّل هذه النتيجة بغيابها، هاجمته آلامٌ لا يعرف كنهها، كل شيءٍ فيه محطَّم، كل شيءٍ لا يسعفه على الوقوف، يستكين لشلل أعضائه ويروح يحدِّق بالجدار.

أيام بلياليها، وهو منقطع عن العالم بعدما أغلق جهازه الخلوي لتكون له وحدته، فكل شيءٍ يعنيه، ولا شيءَ يمكن أنْ يواسيه،

التعاطف في مثل هذه الحالات لا يبلسم روحًا محطَّمة إنْ هي من نفسها لا تدرك الوعي بسطور أحداث القدر، التي تأتي على شكل زلازل متعاقبة.

كان يحتاج لأيامٍ كي يزيل الرُكام المتراكم عن روحه، وينتشل نفسه من بين غبار اليأس ليشعر بضرورة التواصل مع محيطه، لكنه وجد كل الأبواب موصدة لأنْ يعرف شيئًا عنها، لا أحدَ من أهلها يريد التحدُّث معه كلما هاتفهم.

ـ هل ألصَقَتْ به كل ما يمكن لتلويث سُمعة الرجل؟

اهتدى أخيرًا في دفترٍ قديم إلى رقم هاتف إحدى صديقاتها، كان صوتها يحمل الأسى:

ـ كنا مجموعة من الصديقات دعتنا والدتها لزيارتها من أجل إقناعها بالعودة إليكَ بعد محاولات أهلها، بصراحة هي لا تطيق سماع اسمكَ، ولم نكن ندري أنَّ حديثنا يسبب لها ضغطًا معيَّنًا، انهيارٌ داهمها، أو قلْ هو جنون خالص انتابها، راحتْ معه تضربنا وتشتمنا، وكان صراخها غريبًا ومخيفًا، حتى جاء شقيقها وطلب لها سيارة الإسعاف.. هي ترقد الآن في قسم الأمراض العصبية بالمستشفى العام بانتظار ما سيقرره الطبيب بنقلها إلى مصحة نفسية أو يكتب لها الخروج، كن حذرًا أنْ تذهب إلى هناك، فزيارتها ممنوعة عليكَ.

• • • •

وكان ليلٌ لم يستطع فيه النوم، الأرق صديقٌ حميمٌ يسامره ويلاعبه، حتى يشعر هو الآخر أنَّ أعصابه تقف على حوافي الهاوية، يشعر ليعرف أنَّ في رأسه ما زال بقايا من عقل، ولكنَّ الأسئلة فيه جارحة لا تجعله يدرك اليقين، يقين ما حدث وما سيحدث.

في قرارة نفسه المضطربة كان يعترف أنَّ لزوجته شجاعة نادرة، شجاعة هو يفتقدها، هو لم يستطع أنْ يصبَّ النار على مرارة الحرمان والعجز، هي صبَّتها بكل تحدٍّ، وذهبتْ إلى غياهبها غير آبهة بحياة لا تمنحها ما منحتْ للآخرين، فيما هو ظلَّ يشد ترحاله بصبرٍ إلى دنيا الأمل.. الأمل، هيهات يطرق بابه بعدما ضاقتْ السُّبل بتضاريس، وتعاريج الألم حتى همدتْ الروح في أوعية الخسارة، فمَنْ يقبل بالخسارة غير المهزوم!، وكان يعتبر زوجته من غير المهزومين.

في الصباح التالي كان يجد طريقه إلى داخل المستشفى العام، عند الباب الحديدي لقسم الأمراض العصبية يستوقفه البواب، ويطلب منه إبراز بطاقته، ارتبكَ وأيقن جِدية منع الزيارة عليه، راح يشرح للرجل الضخم ذي الشارب العريض ضرورة هذه الزيارة، وعرض عليه بعضًا من المال، تردد الرجل وقَبِل أخيرًا بالرشوة بعد توصية بعدم إفشاء سره، وسمح له بالدخول.

عند باب الغرفة المغلق شعر بقلبه يزداد خفقانًا، طرق الباب

طرقًا خفيفًا بينما بيده الأخرى فتح الباب، تفاجأ بثلاثة من النسوة يتحلّقنَّ في صمتٍ حول السرير، وهي نائمة، كان يستطيع أنْ يرى شحوب وجهها.. أخذ كرسيًا ووضعه بمواجهتها تمامًا بحيث إنْ فتحتْ عينيها ستراه.

- كيف دخلتَ؟!

كان السؤال من إحدى النسوة، وهي شقيقتها الكبرى، ولم يتأكد إنْ كان السؤال احتجاجًا أم بدافع من الفضول.

لم يجد شيئًا يقوله تحت جفاف حلقه، وقد راح يتأمل وجهها، وبين الفينة والأخرى ينظر إلى الأرض بلا هدف.

- هي نائمة بسبب الأدوية التي يعطونها إياها.

قالتْ صديقتها التي هاتفها البارحة.

- قد تستيقظ في أي لحظة.

ثم وجهتْ كلامها للنائمة قائلةً:

- زوجكِ هنا.. أتى لزيارتكِ.

في هذه اللحظة أصابته خشية، ماذا لو استيقظتْ وشرعتْ للجحيم أنْ يفور؟ فكّر: ألا تنكشف فضيحة وجوده وينكشف أمر الرجل الواقف بالباب. لكنَّ شيئًا من هذا لم يحدث عندما فتحتْ عينيها على وجهه مباشرةً، كانتْ نظراتها محايدة، وفي عينيها ذلك الانكسار وذلك الحزن العميق، وبعد برهة سألته:

- معكَ سيجارة؟

نهرتها شقيقتها:

- ممنوع!.

فكان أنْ صدر منها صوتٌ يُستدل منه التململ والاحتجاج.

قالتْ الصديقة:

- هذا زوجكِ جاء ليطمئن عليكِ.

- زوجي.. ها ها؟! أنا ليس لي زوج، ولكنَّ القطار لم يفتني، سأتزوج عن قريب.

خشونة صوتها لم تمنعه من التقاط اللَّكنة الطفولية في نبراتها، وكانتْ تضيف:

- أنا وأكرم متحابان، وأريد الزواج منه عندما أخرج من هنا، أين هو؟ لماذا لا يأتي لزيارتي؟ اتصلوا به ليأتي.

التفتَ إلى النسوة مستوضحًا بإيماءة من رأسه عمَّن يكون أكرم هذا.

- سائق الإسعاف الذي نقلها إلى هنا.

وجد نفسه ينتفض عن الكرسي واقفًا ليأخذ طريقه نحو الباب، وكان يداري دمعة بدأتْ تترقرق في مآقيه، وهو يتمتم في قلبه بما لا تستطيع النسوة سماعه:

- قلْ إذا أصابتكم مصيبة: لا حول ولا قوة إلا بالله.

جبهات منزلية

تقع غرفتي الصغيرة بين الغرفتين الكُبريين، غرفة أمي الشَّرِحَة، وغرفة أبي التي كانتْ مخصصة لضيوفنا المقرَّبين، وبالذات لجدي وجدتي المعتادين على زيارتنا لأيامٍ، ثم جعلها له بعدما ترك غرفة أمي.

فيما سبق حينما كنتُ أنسلُّ وقت القيلولة إلى الغرفة الشَّرِحَة وفيها أبي وأمي، وأدسَّ نفسي بينهما في السرير، كنتُ أشعر بأنني أملك سعادة الدنيا كلها من خلال السَّهمين اللذين يخترقاني، سهم الحنان من لمسات أمي، وسهم الطيبة من مسحات أبي على رأسي.

بين الحنان والطيبة تركض بي الدنيا، براءتي تجعلني أعتقد نفسي أميرًا مدللاً تنبسط له الحياة، وله وحده تزقزق الطيور.

كان إنْ أخذني أبي إلى القمر، تكيد له أمي وتأخذني في اليوم التالي إلى الشمس، حقيقة الأمر أنهما كانا يتسابقان إلى تحقيق سعادتي.

والقمر والشمس ما هما إلا اسمان لمدينتيّ الملاهي في مدينتنا

المترامية، ولم يكن يقتصر الأمر على ذلك فقط، إذ أنَّ جداي سيمران في يومٍ آخر لاصطحابي إلى "أورانوس" في إحدى الضواحي البعيدة.

ومن حينٍ لآخر كان جدي يأتي دون جدتي ليأخذني إلى مطاعم بَحريَّة اعتدنا أنا وإياه على ارتيادها، وهي من تلك المتخصصة في تقديم وجبات السمك التي أشتهيها، وأحيانًا تحت إلحاحي كان يذعن لطلبي بأنْ يصطحبني إلى مطاعم "الهمبرجر".

في كل مرة كان يقول جدي:

ـ تعالَ نذهب لنرَّوح عن أنفسنا.

ولم أكن أفهم ماذا يقصد، أو ما بال نفسه، وما هو الشيء الذي يريد أن يرَّوحه عنها.. لكنني أراه في كل مرة أكون معه دون جدتي ساهمًا إلى البعيد من خلال زجاج المطعم يتنهد بين الفينة والأخرى لا يلتفت إلى الطعام.

• • • •

ألهو في حديقة منزلنا، والخريف يرسم الاصفرار على مكونات الحديقة، ويأتي بنسماتٍ باردة. إلا أنَّ بعض دفءٍ كان مازال في الأجواء، وهو ربما ما نساه الصيف خلفه وقت الرحيل.

أُراقب غيمةً سوداء تقترب من بعيد، وكلما اقتربتْ ناحية منزلنا

تحطُّ على الأرض ظلالٌ قاتمة تحت تأثيرها أشعر بانقباضٍ في نفسي، وأنها تخترقني وتتغلغل بي، فيساورني القلق، كنتُ صغيرًا على القلق لكنْ ها هو يأتيني فجأة وبدفعة واحدة.

الغيمة السوداء تتوقف فوق منزلنا، تتوقف ولا تعود تتحرك.. في هذه الأثناء أسمع اصطفاق أبوابٍ تأتي من داخل المنزل حيث والدايَّ يقضيان في هذا الوقت قيلولة ما بعد منتصف النهار.

الغيمة تبدو ثابتة فوق منزلنا وكأنها مثبتة بأعمدة من هواء، يصلني صراخ أُمي وأبي، وأصوات تكسير للزجاج ربما صحون وأشياء أخرى تتحطم، إنهما يتشاجران في الداخل، فيما أنا في الخارج أنفجر بالبكاء وسط عتمة كثيفة صنعتها الغيمة وكحَّلَتْ روحي.

حينما دخلتُ المنزل بعد وقتٍ شاهدتُ آثار المعركة.. حطامٌ متناثر، لكنَّ آثار الحطام في نفسي كانتْ أعظم مما أراه حولي.

دخلتُ الغرفة الشَّرِحَة فوجدتُ أُمي وحدها، وقد حاولتْ أنْ تمسح دموعها فور أنْ أحسَّتْ بحضوري، أدارتْ لي ظهرها، وطلبتْ منِّي الخروج برغبةٍ لأنْ تكون وحيدة.

روحي تتكسر مثل الزجاج، فأذهب أتفقد أبي في الغرفة الأخرى، أراه ممددًا على السرير، وقد غابتْ من عينيه النظرة الحانية، وحلَّتْ محلها نظرة جامدة لم أرَها في عينيه طيلة حياتي، حدجني ثم زجرني لأنْ أذهب إلى غرفتي.

في غرفتي أشعر أنَّ العالم ينهار.

••••

أنقطع عن مدرستي ولا أحد يسألني، أتقوقع داخل الغرفة وسط عالم والدايَّ المجنون، ولا أخرج إلا تسلُّلاً إلى المرحاض أو المطبخ لعلَّني أجد شيئًا أتناوله ليسدَّ أبواب جوعي.

أصحو على صياح أُمي في اللَّيل، ولا أجرؤ على الاقتراب من غرفتها، صرتُ أشعر بالخوف يتملَّكني، فأطمر وجهي تحت الغطاء، وأكتشف كل صباح بأنني مُتَبوِّل في ثيابي.

هذا الصباح قرَّرتُ اقتحام غرفتيهما، أريد وضع نهاية لهذه النار التي تشتعل في منزلنا، أدخل أولاً غرفة أُمي، أراها وكأنني أرى امرأة غريبة بشعرٍ منفوش وعينينِ غائرتين فيهما نظرات ممتلئة بالحزن والخوف والريبة. ترتاب أُمي بي، تلوَّح بوجهي بسكين المطبخ، وتطلب منِّي الخروج من مملكة جنونها فورًا.

لم أذهب من فوري إلى غرفة أبي، خرجتُ إلى حديقة المنزل هَلِعًا وبسبب دموعي السَّاحة لا أرى أمامي، أرى خيالاتٍ قاتمة والأرض تميد تحت قدميّ.

انتبهتُ إلى أنَّ الغيمة السوداء مازالتْ واقفة فوق المنزل، أُراقبها فأراها تتقلَّب بتشكيلاتها الآخذة أشكال وحوش، كنتُ من قبل قد

شاهدتُ مثيلاتها في أفلام الكرتون... مكثتُ هناك إلى ما قبل المغيب، وأنا أبكي بحرقة وبلا انقطاع حتى ارتوَتْ شجرة السرو العالية.

قبل الدخول إلى غرفتي مررتُ بغرفة أبي، كان لا يزال ممددًا كأنه لم يبرح مكانه، نظراته حادة كأنها لرجلٍ آخر لا أعرفه.. انتبهتُ إلى أنَّ ذقنه قد نبتتْ في وجهه فأعطته ملامح قاسية، يحدِّق بي فأرتعد وأحسُّ بجفاف اللُّعاب في حلقي، ألمح بيده موسى الحلاقة الحادة فأنقلب مرتعدًا إلى الخلف، أعدو نحو غرفتي، ومن الداخل أوصد الباب ورائي، ثم أطمر نفسي تحت الغطاء حتى الصباح.

• • • •

عجلات دراجتي تنهب إسفلت الشارع، وأنا أقودها إلى بيت جدي وجدتي اللذين قرَّرتُ أنْ ألتجئ إليهما وأشكو والديَّ، أو لعلَّني أجد في منزلهما رعاية واهتمامًا افتقدتهما، كنتُ أحتاج إلى الأمان وإلى شيءٍ من الحنان أسترد بهما طفولتي المهدورة في شجارات والديّ.

أمام بوابة المنزل أطلقتُ صوت جرس الدراجة، حيث كانا كلما سمعاها يخرج واحد منهما باشًّا لاستقبالي، أنتظر قليلاً كما هي

العادة... ولكنَّ هذه المرة لم يخرج إليّ أحد.

أركن الدراجة، وأقترب من الباب، أقرعه ولا يأتيني أي صوتٍ من الداخل، ولكنْ سرعان ما أكتشف أنهما نسيا إغلاق الباب بالمفتاح، أخطو إلى الداخل وسط صمتٍ مُطبق على الأرجاء، وأنا أُنادي لأُشعرهما بوجودي، يأتيني صوتهما بنفس الوقت من داخل الغرف المُغلقة، كل صوتٍ من ناحية يطلبان منِّي العودة في وقتٍ آخر.

كأنني تعوَّدتُ على الغرف الموصدة، لذلك لم أشعر بكراهية تجاه جديَّ ولا حتى تجاه والديَّ، ولا تجاه أي أحد. كل ما شعرتُ به وأنا في طريق العودة إلى البيت، هو أنني قرَّرتُ أنْ أكون رجلاً قبل الأوان يعمل لفض الاشتباكات، ولاستتباب الأمن والسلام بين أفراد عائلتي.

••••

أُحضِر شفرةً من شفرات أبي وألوذ بها في غرفتي، أترك الباب مردودًا من دون إغلاقه من الداخل كي يصل إليَّ والدايَّ في الوقت المناسب.. بيدين مرتجفتين أجرح رسغي، فينفر الدم وأصيح من الألم، لا أحتاج إلى أكثر من برهة حتى يكون والدايَّ في غرفتي، وأنا برغم كل آلامي وفزعي من رؤية الدم، وقبل أنْ

أغيب عن الوعي كنتُ أستطيع قراءة خوفهما عليَّ، حيرتهما وتخبطهما بكيفية تقديم الإسعافات إليَّ.

أصحو على نفسي في غرفة بالمستشفى، وضمادة ملفوفة عند رسغي المجروح، يحوطني جدايَّ ووالدايَّ كلٌ من جهة، أرى كل أفراد العائلة قد التمّوا في هذه اللحظة تحت سقفٍ واحد، والابتسامات والقبلات تهطل على وجهي، كأنني أسبح في بحيرة من الحنان.

يدخل الطبيب بالنبأ السار بأنني تجاوزتُ مرحلة الخطر، أسمع همهمات تعبِّر عن السعادة بالسلامة، يسحب أبي يد أُمي ويأخذها إلى زاوية مواربة خلف ستارة، وحدي أستطيع أنْ أراهما كيف يتحاضنان، وهما يكفكفان دمع بعضهما، وتخيلتُ جداي سيكرِّران نفس المشهد عاجلاً أم آجلاً حينما تسنح لهما الفرصة.

بعد خروجي من المستشفى بأيامٍ، كنتُ أشعر باسترداد طفولتي، وبعودة عالمي الجميل بين أحضان والدايَّ، وزيارات جداي اليومية وبقية الأقرباء الذين يتوافدون على بيتنا بعد انقطاعٍ.

حرصتُ أنْ أبحث في نفسي عن أثرٍ للندم على إزهاقي لدمي بفعلي الطائش، فلم أجد سوى بساتين من الغبطة تسقيها دمائي التي أعادتْ السلام إلى بيتنا.

عصفور النهار الأخضر

ثمَّة عصفور أخضر يقف على غصن أخضر، غصن يتفرع من شجرة يابسة واقفة منذ سنين على حالها لا يبدو عليها الوهن، ولم تطالها الهشاشة، ينتقل العصفور إلى غصنٍ آخر، وما إنْ تلامسه قدماه حتى يصير أخضرَ، ويعود الغصن الذي كان منذ قليل أخضر إلى يباسه، يراقب العجوز المشهد وتصيبه الرجفة.

منذ أعوامٍ عديدة، وكل خريفٍ يشهد مجيء العصفور في يومٍ معلوم من تقويمٍ لم يتغير طيلة السنوات الماضية، أول ما يأتي، يأتي عند شقشقة ضوء النهار، ويحطُّ عند حافة نافذة العجوز، وينقر على الزجاج ثلاث نقرات لينتبه العجوز النائم إلى وجوده، ثم يطير مسقسقًا إلى أغصان الشجرة اليابسة دون غيرها، ولا يبرحها ذلك النهار حتى تزفَّ ساعة الرحيل.

يأخذ العجوز ركنًا مظلَّلاً من الحديقة، ويقضي فيه طيلة النهار لا يريد أنْ يجالسه أحدًا، ولا يُقدِم على طعامٍ أو شرابٍ يحضره له أهل بيته، يكتفي بنفسه وهو يرى تحوّلات الشجرة مع تحرّكات العصفور، وتصيبه الرجفة.

الرجفة هي من علامات الدهشة، وحده يعرف هذا دون استشارة

طبيب؛ لأنَّه ما أنْ يحلَّ مغيب شمس النهار، وهو وقت رحيل العصفور، حتى تزول الرجفة، ويشعر العجوز بحياةٍ جديدةٍ تدبُّ في أوصاله.

رجلٌ رأى الكثير في حياته حتى أتى على كل ما يثير الانبهار، لكنْ ها هو الآن ومثل كل عام في هذا الوقت، وتحت تأثير دهشته يحاول فكَّ غموض العصفور الأخضر، والأغصان اليابسة التي تصير خضراء ما أنْ يحطَّ عليها العصفور، يبحث عن علاقة ما بين حيوية جسده التي يكتسبها ذلك النهار وبين ما تشهده الحديقة.

كان في السابق قد فكَّر مرارًا أنْ يقتلعها تحت إلحاح أهل بيته، وحين يهمُّ بالفأس على جز الأغصان يأتيه هاتفٌ من داخله يأمره بالكفِّ عن حماقة إزالة صديقة عمره.

الشجرة من عمره، حدَّثه والده المدفون الآن بين جذورها بأنه زرعها تحت المطر حينما كانتْ أُمه تلده في داخل المنزل، كان الحاضرون من الأقارب يطلبون منه الدخول تلافيًا للمطر، وليشهد ولادة ابنه، هو الذي صار الآن عجوزًا في الستينيات، لكنَّ الوالد كان مصرًّا على أنْ يزرع الشجرة في اللحظة التي يشهد هو فيها النور، وتحديدًا مع أول الصوت الباكي الذي ينشر يقين الحياة.

••••

هذا العام أعدَّ العجوز عُدته لاصطياد العصفور، الحكمة لديه ما يستنبطه حدسه من الاخضرار الآتي من الطائر الصغير، وهي أنَّ النعمة والبركة ستنزلان على المنزل مع وجودٍ دائمٍ لعصفور أخضر.

الأصوات الداخلية التي كان فيما مضى يذعن لها بعدم الإقدام على إزالة الشجرة من الحديقة، تعاوده هذه المرة أكثر عصقًا في رأسه وتأمره بعدم اعتراض العصفور، تأتي ليالٍ لا ينام الرجل فيها، يقضي الوقت متأرقًا متعرقًا يتصارع مع نفسه، يشعر أنَّ آخر يسكنه، ويحرِّضه على الإمساك بالعصفور، ووضعه في قفصٍ داخل المنزل.

يستعين بحفيده لتنفيذ المهمة، الصبي الذي يحفظ أسرار جده بخفة يتسلَّق الشجرة، ويوزع عيدان الدبق بين الأغصان، العيدان تشبه الأغصان إلى حدٍّ بعيد، حين يراها العصفور لن يرتاب أبدًا بالشَّرك المنصوب له.

منذ الصباح الباكر جلس الاثنان يترقبان أنْ يعلق العصفور، ويلتصق على عودٍ من العيدان، العصفور مفرطٌ بالحركة وعلى إطلاق السقسقة، ما أنْ يحطَّ على غصنٍ حتى يطير إلى آخر، كان الصبي مأخوذًا بالاخضرار المورق الذي يصيب الأغصان فجأة، وفجأة تعود كما كانتْ، كما عهدها يابسة بلا أوراقٍ خضراء.

انتصف النهار، والعصفور على حركته بل ازدادتْ لتتحوَّل إلى حركاتٍ بهلوانية، كأنه يعرف بأنه مُراقب، وعليه أنْ ينصب للرائي الذهول، رجفة العجوز انتقلتْ إلى الصبي، ارتجاف دهشتهما التي تضع روحهما في خارج المكان، أو هو المكان يصعقه السحر فيدبُّ في أوصالهما خدرٌ لذيذ، خدرٌ يجعل الجنَّة الموصوفة تحف بالجسدين فينبسط لهما النعيم.

لذاتٌ على لذاتٍ كانتْ فكرة العجوز أنْ تغمر أهل داره بإحضار العصفور إلى المنزل بشكلٍ دائم، لكنْ ها هو النهار يكاد أنْ ينقضي والعصفور حرٌّ طليقٌ يصدح بما لا يصدحه طير، بدأ السأم ينتاب الصغير، وخوفٌ يتسلَّل إلى قلبه بأنْ لا تنجح خطة جدِّه بامتلاك العصفور، وجدُّه يتمتم بنشوة:

ـ الصبر يا بني.. العيش لا يأتي قبل الأوان ولا يدوم بعده!.

دون سابق إنذار سكت العصفور عن السقسقة، وخيَّم على المكان صمتٌ مطبقٌ يشي بالرهبة، وقف العصفور على عودٍ من عيدان الدبق يرفرف بأجنحته التي ما عادتْ تقوى على حمله للطيران، هبَّ الصبي مسرعًا يتسلَّق الشجرة، أمسكَ بالعصفور، ونزل به حَذِرًا بعد تنبيه جدِّه بأنْ لا يضغط بكفه عليه، في باطن كفه يشعر الصغير بدفء العصفور وارتعاشاته.

ما إنْ دلفا إلى داخل المنزل مع أول العتمة، والعصفور صامتٌ في القفص يرمق المكان بنظراته، وكأنه يتفحص عالمه الجديد

حتى أعلن العجوز عن توعُّكٍ في صحته، يشعر بضعفه بالثبات، دوار يجعله أنْ يفقد الإدراك بالمكان، عيناه تبدأن بحركات الرأرأة قبل أنْ تأتيه نوبة من الإغماء، أما الصغير فكان رأسه خفيفًا، ونام في سرير جدِّه الذي أغمض وغفى.

في الصباح قام الصغير بخطواتٍ متثاقلة ليستْ له إلى القفص، اكتشف أنه فارغ ولا أثر فيه للعصفور، فارتدَّ كالمصعوق إلى جدِّه ليحمل إليه النبأ، رآه ما زال غافيًا، وهو يهزه اكتشف أنَّ جسده قد تحوَّل إلى خشبة يابسة، كأنها فرعٌ من شجرة الحديقة اليابسة.

• • • •

بعد موتِ الجدِّ ظلَّ رأسُ الصبي خفيفًا، ظلَّ يلازم الحديقة وحيدًا لا يسعى إلى مخالطة أقرانه، يظلُّ يرقب عودة العصفور، وهو يتبلَّل بالمطر إنْ السماء أمطرتْ، وتؤرجحه الريح إنْ هي عصفتْ، حين يجيء الصيف تضرب رأسه الشمس كل يومٍ، وعند هبوط أول العتمة ومع فقدان الأمل يقوم على غير هدى خارجًا من المنزل، يجوب طرقات القرية طارقًا أبواب المنازل سائلاً عمَّن رأى عصفورًا أخضرَ يحوِّل الأغصان اليابسة إلى أغصانٍ خضراء.

الطواف المسائي هذا غالبًا ما كان ينتهي بالصبي مغشيًا عليه في الطرقات، لا يعود إلى منزل ذويه إلا محمولاً أو مسنودًا، ولسانه يهذي بالعصفور الأخضر والدنيا تدور به وتدور. في غيبوبته كما في صحوِه سوى الإخضرار لا يرى.

من أين للأموات هواتف خلويَّة؟

هالها اختفاء الشاهد تحت النبات الشوكي المتطاول والمتشابك على بعضه، لم تتوقع أنْ يكون الوقت الذي مرَّ منذ آخر زيارة لها للمقبرة يفعل بالنبات هذا التمدد، وهذا النمو السريع، التفتتْ حولها فرأتْ شواهد القبور كلها تقريبًا مغطاة بهذا النبات الغريب، كأنَّ يدًا آدمية بذرَته لحكمة غير ظاهرة.

من غرفة حارس المقبرة الذي لا يبدو أنه في غرفته، جلبتْ مقص الأشجار، ودأبتْ على قصِّ الأشواك وإزالتها من حول القبر، يوخز أصابعها الشوك وتدمع عيناها، لم تستطع التخلُّص من الوفاء له حتى وهي تعلم أنه كان يخونها مع أعز صديقاتها، وحين ماتا سويًا بحادث انقلاب سيارته، وصار له قبرًا ها هنا، لم تنقطع عن زيارته كما تفعل الآن... يغلبها الوفاء، كانتْ كلما فكرَّتْ بقطع هذه الزيارات حين تتذكر خيانته لها، ويقيم الألم أعراسه ليجرح مشاعرها، تجد نفسها منسحقة بالوفاء له، قدماها تجدان طريقهما إلى المقبرة دون تخطيطٍ أو قرارٍ مسبق، ليرتاح وجدانها وهي تقوم برعاية قبره، ولأملٍ يظلُّ قابعًا في خاطرها في أنْ تلتقي روحها بروحه الهائمة.

كانتْ على وشك الانتهاء من قص الأشواك حين سمعتْ صوتَ رنينِ هاتفٍ خلوي، فمدَّتْ يدها إلى حقيبتها تتفقد هاتفها مع يقينها بأنَّ نغمة الرنين لا تخص هاتفها، ولكنها تفعل بتلقائية، هاتفها مطفأ والرنين يتكرر، تتلفتْ حولها لعلَّها ترى أحدًا غيرها بين القبور، لكنَّ المقبرة دونها خالية من الأحياء، حتى إنَّ الحارس لا يبدو له أي أثرٍ في المكان.. وفي هذه الأثناء يصل إلى سمعها صوتٌ ذكوريٌّ يردُّ على الهاتف.

ـ أهلاً حبيبتي.. لقد اشتقتُ إليكِ.. لا يمنعني عنكِ إلا الشديد القوي.. واحة موتي أنتِ.. أنتِ ضياء قبري!.

هل تهيَّأ لها الصوت تحت تأثير تذكُّر خيانته؟ هل جراحها مازالتْ تنزف بالرغم من مرور سنوات عديدة؟

تصغي للصوت بانتباهٍ شديد، الصوت حقيقي ويأتي من قاعٍ عميق، تعرف الصوت ولا يمكن أنْ تتوه عنه، إنه صوت زوجها الراقد تحت التراب، من أين للأموات هواتف خلوية؟!.. هل مازال على اتصال مع صديقتها المقبورة في مكانٍ ما من المقبرة نفسها؟ هل تُدفن الطبائع مع صاحبها؟ هل طبع الخيانة ما زال يسري في عروقهما اليابسة تحت التراب؟.. ألا يفرض عالم الأموات طبائع جديدة تتناسب مع قانون الموت أم أنَّ قانون الموت يتساوى مع قانون الحياة؟... يكاد أنْ يغشى عليها تحت طفح الأسئلة.

كيف تظل على وفائها، وهو يخونها حتى تحت التراب؟ تحسُّ أنَّ رأسها سينفجر من الغرائب التي تواجهها، بصيص العقل مازال يحثها على التفكير بأنَّ ما يحدث لها ما هو إلا مجرد تهيؤات وأوهام تنتابها من شدة الآلام التي تركتها خيانته، ندوب لا تمحى من ذاكرتها، وها هي تنشط وتشتد عند قبره لتحيلها إلى الهذيان والجنون.

أسرابٌ من الغربان السُّود تطلق نعيقها، وهي تحوم في فضاء المقبرة، والمرأة تدور حول القبر، وقد طار غطاء رأسها فانفلش شعرها يتطاير هو الآخر مع هبوب عاصفة مفاجئة.

ومن جديد يتناهى إليها الصوت القادم من الأعماق مقهقهًا، أحسَّتْ به وكأنه يهزأ منها.

تتصدع المرأة، تشعر أنَّ أشياء من نفسها تنخلع وتتساقط، رأتْ الغربان تتجمع فوق رأسها، فكرَّتْ بالهروب، وبلا تردد شرعتْ تحث خطاها باتجاه باب المقبرة... في الطريق وعند باب غرفة الحارس رأتْ عِدَّة الحفر، حملتها وعادتْ بها إلى القبر، وهي تردد:

ـ سأقتلكما.. لا عيش لي مع الخيانة!.

عندئذٍ لاحظتْ أنَّ الغربان عادتْ تتجمع فوق رأسها، ونعيقها يدوي في أُذنيها، وسط النعيق كانتْ تستطيع أيضًا أنْ تسمع قهقهات القبر تخرج من جديد مدوِّية مثل صوت الرعد.

تُكسِّر بلاط الشاهد أولاً، وهي تطلق صراخًا هستيريًا متواصلاً يملأ فضاء المقبرة، اللُهاث من صدرها يصدر كاصطفاق الرياح، والزبد يملأ فمها ويفيض، ضربات المِعْوَل في التراب تنزل قوية وثابتة كأنَّ قوة ليستْ لها قد تلبستْ بها، قوة غريبة لا يملكها إنسٌ فوق الأرض.

تحفر المرأة بالقوة الغريبة، تحفر بلا تردد ودون انقطاع، وصلتْ إلى قاع بدأتْ تظهر فيه جمجمة وبعض عظام، تناولتها ورمتْ بها إلى فوق التراب وواصلتْ الحفر.

ظلَّتْ المرأة تحفر حتى مغيب الشمس، العتمة الحالكة غمرتْ الحفرة، وما من سبيل فيها لضوءٍ أنْ يتنفس...

وعلى حين غرة انهار التراب عائدًا إلى الحفرة، والمرأة بداخلها تحفر وتحفر.

اكتمال القمر

ثمَّة دم غزير وسط ضوءٍ مشع يغشي الأبصار، في مكانٍ يبدو لي وكأنه ثُمرة بلُّورية معلقة في فضاء متمدد ومتطاول في المدى اللامتناهي.

الدماء تُرشَق رشقًا من كل الجهات، فتتلطخ الوجوه حتى لا يعود يُستدل على مَنْ القاتل ومَنْ القتيل، الجميع يتصرف بما يمليه عليه دوره، وكأنَّ الضوء الضارب في المكان مصدره شياطين تتسرب إلى الأجساد، وتحدِّد مَنْ يكون السفاح ومَنْ تكون الضحية.

كنتُ ضحية بين الضحايا، أعضاؤنا تصطك من الرعب، وأصوات صراخنا بالكاد أحد يسمعها أو يعيرها اهتمامًا، كأنها تخرج هامسةً أمام قهقهات القتلة التي تزلزل المكان.

أرى أختي الكبرى وبطنها أمامها، تتحرك بينهم كأنها تنتمي إليهم، ثم تجلس في حِضن واحدٍ منهم وتقبِّله برضى وسعادة.

كنتُ أقف في جهة أخرى وسط طابور للبنات ننتظر دورنا في الاغتصاب والذبح، بعض البنات يُغشى عليهنَّ من الخوف،

فيأتون إليهنَّ بسطلٍ من الدماء يرشقون به وجوههنَّ حتى يعُدن إلى وعيهنَّ.

لا تختلف أوصافهم عن أوصاف الهمجيين الذين قرأنا عنهم في كُتب التاريخ، لحاهم كثَّة وطويلة تأكل وجوههم، يعتمرون خوذاتٍ معدنية يتوسطها نتوء صاعد يشبه عُرف الديك، بأيديهم سواطيرَ وسيوفٌ ورِماحٌ وآلاتٌ حادة أخرى، يَجِزُّون أو يدقون بها الرؤوس، والرؤوس تتطاير وتتدحرج، والدماء تتدفق في كل الجهات.

حشودٌ بشريةٌ مكدَّسةٌ هنا، ولا أحد يعرف أحدًا، أختي لا تراني وهي في حالة انسجام بالاستئناس مع حامل السيف، وأنا أُنادي وألوِّح لها بلا انقطاع لعلَّها تسمعني أو تراني، لتفتح لي السبيل إلى بابٍ أستطيع الخروج منه، وأنا محتفظة برأسي وكامل أعضائي إلى مكانٍ طاهر لم يمسسه دم، لكنْ كأنَّ الكون قد أطبق على هذه الحتمية المتجسدة في رؤياي مرة كقيامة، ومرة أخرى كولادة، برهانها هذا الدم المتواصل.

كان دوري قد حان، وأصبحتُ أمام الطاولة التي يَجِزُّون عليها الرؤوس، وكأنني مُسيَّرة من قوةٍ غامضةٍ أضع رأسي على حديدٍ مثبَّتٍ بالطاولة، ربما هو المقصلة الموصوفة في كتب التاريخ بانتظار السيف أنْ ينزل على رقبتي... لكنْ في تلك اللحظة أستعيد صوتي الذي اختنقتُ به، الرعب يستحثني لأنْ أصرخ من

أعماقي بكل قدرة لي على الصراخ، ولكنه يظلُّ محبوسًا في داخلي، لأنني لا أرى أحدًا من أهلي يهرع إليَّ.

دبيب الوعي يلامس روحي، ويمسح خلاياي بيقظةٍ ضئيلة حتى أكتشف نفسي ممددة في سريري، ورأسي ما زال على المخدة الناعمة.

• • • •

أحكي كابوسي لبنات صفي، بعدما حكينَّ هُنَّ أحلامهنَّ بطلبٍ من المعلّمة التي طلبتْ من كل تلميذة أنْ تحكي عن حلمٍ رأته في المنام.

ما إنْ انتهيتُ حتى اقتربتْ منِّي المعلّمة تربتُ على كتفي، وتمسح على رأسي بتعاطفٍ ظاهرٍ، أرى الذهولَ والخوفَ على وجوه زميلاتي.

تقول المعلّمة لي، والكلام لكل الفتيات:

ـ عندما تضعنَّ رؤوسكنَّ على الوسائد طلبًا للنوم اقرأنَّ المعوِّذات وآية الكرسي، فهي تبعد الخواطر السيئة وتدفع عنكنَّ الشرور.

• • • •

قرأتُ المعوِّذات الثلاث اللاتي أحفظهنَّ عن ظَهرِ قلب، وقرأتُ آية الكرسي التي اجتهدتُ في حفظها طيلة بقية النهار بالرغم من التوعُّك المفاجئ الذي أصابني، وزرع فيَّ عدم الارتياح، منذ المساء وأنا أشعر بانقباضٍ في نفسي يعكّر مزاجي، رأسي ثقيلة ودوار خفيف يتلاعب فيها، كأنَّ في أسفل بطني ثعبانًا يتلوى، فأشعر بآلامٍ مغصٍ شديدة.

أقرأ وأكرِّر لعدة مرات حتى يأخذني النُّعاس، فيطالعني الدم، يطالعني نفس الكابوس بوجوهه الهمجية، كأنَّ الأحداث في شريطٍ مصوَّر تبدأ بالتجسُّد في رمشة الإغماضة التي هي علامة الدخول في النوم، أرى بطن أختي ما عاد أمامها، ليحلَّ بين يديها طفلاً في قماطٍ يشرشر دمًا.

كان صراخي هذه المرة حقيقيًا، بدليل وجود والدايَّ في غرفتي، عند رأسي يتمتم أبي ببعض الآيات القرآنية، وأُمي تقف بمقابلي وهي تبتسم بوجهي، تغيظني ابتساماتها التي لا أفهم من أين تأتي بها أمام حالتي المزريَّة، كيف لا تجزع عليّ؟ كيف لا تقلق من فزعي؟ كيف صراخ الخوف الذي أطلقته في نومي، وجاء بها مع أبي إلى غرفتي في هذه الساعة من اللَّيل؟ كيف لا يحرِّك خوفها عليّ؟ الأمور تلتبس عليّ وكأنَّ والدايَّ جزءٌ من هذا الكابوس.

تطلب أُمي من أبي الخروج من الغرفة، فيخرج منصاعًا لطلبها فيما بدا لي أنه هو الآخر متواطئ مع كل ما يحدث لي.

تقترب أُمي، وتجلس على طرف السرير، وهي تتأمل وجهي والبسمة لا تفارق محياها، تمسك بطرف الشرشف وتسحبه من تحتي، كان ملطخًا ببقعة من الدم، أردتُ أنْ أصرخ ثانيةً لرؤية الدم حقيقيًا في فراشي، فضغطتْ بكفها على فمي وأمرتني بالسكوت، وعادتْ إلى الابتسام ثانيةً، فيما أنا ما زلتُ مسكونة برعشاتِ الخوف.

ـ أنتِ الآن صرتِ امرأة ناضجة!.

لم أفهم كيف أكون ناضجة فالنضوج للفاكهة، كنا كلما حاولنا أول الصيف قطف عناقيد العنب من دالية دارنا ينهرنا أبي، ويقول:

ـ اتركوها حتى تنضج.

فأرمي السؤال بوجه أُمي ببراءة الطفلة التي تكتسحني:

ـ كيف أكون ناضجة كالفاكهة؟

تتوسع الابتسامات في وجه أُمي، توزعها هذه المرة ما بين وجهي وبين النافذة المطلة على اللَّيل، والسماء المزركشة بالنجوم.

التفتُ بتلقائية إلى النافذة حيث أُمي تنظر، فأرى القمر شاخصًا في كبد السماء، وهو بتمام الكمال حوله النجوم وكأنها به تتجلّى، حينئذٍ تناهى إلى سمعي عواء ذئاب تجوب شوارع المدينة، لا أدري إنْ كان ذلك محض تهيؤات أم حقيقة، عواءٌ ظلَّ يعلو ويخفت حتى طلوع الفجر بإيقاعٍ منظَّم يشبه الغناء.

جنونٌ على كعبٍ عالٍ

تمسكُ بيدها وتتقدم بها نحو الماء، وأنتَ تشعر برعشاتها وشدة قبضتها على ذراعكَ عند أول الماء تجفل وتتراجع، وهي تقول:
ـ إنكَ تريد أنْ تقتلني!.

ماء الشاطئ الذي لا يغمر أعلى من القدمين، وأقلَّ من الرُّكْبَة، حيث الأطفال يبنون صخبهم ولهوهم بين الماء والرمال بعدما تَقدَّم ذووهم خطواتٍ في الماء يستحمون في ذلك الصيف اللاهب.

وفي وقتٍ آخر تركتَها حسب رغبتها تنزل وحدها إلى ماء البِرْكة، بينما أنتَ تتمدد على المفرش بين مفارش عديدة رُصفتْ على حوض السباحة، وحدها تهْرج وتمْرج في الحوض المخصص للأطفال، تتمسك بالمقبض القصديري المدقوق في جدار البِرْكة، وتحاول رفع قدميها في الماء، وبين الفينة والأخرى تنادي عليكَ منتشية لتنبهكَ لأنْ تنظر إليها، وتراها كيف هي تسبح كالسمكة.

وإنْ هي إلا لحظات وكنتَ تستطيب بالإغماضة تحت الشمس حتى دوى صوتها في أُذنيكَ، تستنجد بكَ من الغرق، كنتَ تعرف أنَّ المكان الذي تستحمَّ به لا تزيد ماؤه عن أربعة أو خمسة

أشبار، اقتعدتَ وأنتَ تراقب المشهد وتضحك، كانتْ تتخبط بالماء وصراخ خوفها ينبِّه مرتادي الحوض القلائل الذين تناهتْ إليكَ ضحكاتهم.. تقدمتَ منها وأنتَ تطلب منها الوقوف فقط كي تستعيد توازنها، ولكنَّ ابتعادها قليلاً عن المقبض الذي كان يساعدها على الوقوف في الماء هو ما جعلها تتخبط وترى الموت.

تقول لكَ بعد أنْ دنوتَ منها لتتكئ على ذراعكَ كي تخرج من الماء بأنكَ ما عدتَ تحبها وتريد لها الموت، وهي تدقُّ بكفيها على صدركَ، وأنتَ تربتُ على خديها ورأسها وتؤكد:

ـ ما من خطر كان يحوطكِ!.

• • • •

غريبة الأطوار زوجتكَ تأتي بها لتؤنس غُربتكَ، ولتضع وردة في مزهرية الحياة الصاخبة بالصقيع الأوروبي، وعلى حين غرة تطبق على حياتكَ غرائب تصرُّفاتها، ولتصبح أنتَ المسؤول بنظرها عن كل كارثة تعتقد أنها تحيق بها.

التفكير بالكارثة حقل أزاهير في عقلها، لا يمضي يوم إلا وتسقيه بغرابة تترك اليقين منطبعًا بأنَّ شيئًا يلعب برأسها... يقول الطبيب النفسي: إنها أصواتٌ لا يسمعها أحدٌ غيرها.

في اللَّيل وأنتما نائمان في سريرٍ واحد، يتخيل إليكَ بأنها تأتي إلى صدركَ راكضةً من براري بعيدة، لتندس في حضنكَ لاهثةً والعرق يتصبب من جسدها، وهي تقول: بأنهم يريدون قتلنا.

وحينما تسأل:

- مَنْ هم؟

تقول:

- هم يريدون قتلنا.

وتلفحكَ حرارة أنفاسها وحُمى جسدها، وحينما تنتبه هي لأنفاسها المتصاعدة من صدرها المضطرب، تقول:

- إنَّ في الغرفة ذبابة.

وفي ليلةٍ أخرى توقظكَ مع رعبها المستطير، لتقول:

- إنَّ هناك غريب في الغرفة واقف في الزاوية ينظر إلينا.

وفي الزاوية لا يوجد سوى عمود لتعليق الثياب.

في الصباح تبدو أنها لا تتذكر شيئًا.

الصباح للشكوى مع فنجان القهوة تضع على الطاولة أوجاعها، كتفها أم خاصرتها، بطنها أم ظهرها، بشرتها أم شعرها، رأسها الذي سينفجر أم رأسكَ الذي يمتلأ بغابات أوجاعها اللامتناهية.

المساء لملقط الشعر بلا مرآة، وبلا ضوء مستكفية بحواسها، وبالضوء الذي يعكسه التلفاز، وضوء الرُّدهة المتسرب إلى غرفة الجلوس، حيث تجلس تلتقط وهم الشُّعيْرات في ذقنها

ساهمةً تتابع الدراما التركية بشعفٍ، وإنْ مررتَ من جانبها لقضاء حاجة ستحدِّثكَ بلا مقدمات عن حدثٍ معيَّنٍ حصل في المسلسل، ستقول لكَ:

ـ إنَّ أباها قد مات.. يا حرام.

ستُشتت تفكيركَ حول مَنْ هذه التي مات أبوها من معارفكما أو أقربائكما، وإنْ سألتَ، فأنتَ جاهل، وهي المُلِمة بالمعرفة تلمُّ بآخر صيحة بالموضة، وهي الأنيقة بدون مضاهاة، يقينها أنها محسودة من صديقاتها، النرجس العالي في روحها يجعلها تعتقد أنَّ لها ميزات نادرة لا تتوفر لصديقاتها، تهزر بأنَّ الله تمهَّل في خلقها.

العبث في أنْ تجادلها أو تحاول تصحيح معلوماتها، فهي عنيدة وثابتة على رأيها، هي غزالة مكتنزة تقوى على الرياح والمسافات، تعرف كيف تأكل وتلبس، لها ذوقٌ عالٍ وعلى هذا الذوق تُقيم فنون التبذير، إحدى الصديقات تقول:

ـ إنكَ تملك ذوقًا رفيعًا.

وتقصد اختياركَ لشريكة عمركَ من بين النساء، وكنتَ تعرف أنَّ للناس الظاهر لكي يحكموا على شخصٍ ما.

• • • •

الماء ـ النار

النار ـ الماء

يا للعواصف التي تنوء داخل البيت، وتجعل النوافذ أكثر الأحيان مخلَّعة كما القلب وكل الحواس.

تُحيِّركَ عذوبة الماء كيف تصير لهبًا يتلظى، وكيف في لحظةٍ يعود اللظى ماءً رقراقًا.

المزاج هو تاج الوقت، هو الذي يعرف كيف يستل العذوبة من الحريق، ويعرف كيف يشعل الحريق من حشائش خضراء غافية في القلب.

كان من المفترض أنْ تأتي إلى غربتكَ لتشيِّد حزامًا أمنيًا حول تفاصيل حياتكَ، تخرجكَ من النزق والصقيع، إذ بوساوسها كأفعى تتلوى بين أثاث البيت، خوفكَ من اللدغة يطيح بكَ أنْ تظلَّ خارجًا تجوب الشوارع بعيدًا عن كوابيسها والملاحم اللَّيلية التي يجيء بها النوم، هي لا تنام إذا لم تلمس رقودكَ بجانبها، عليها أنْ تقبض على طرف من أطرافكَ، وعليكَ أنْ تحكَّ لها ظهرها، وعليكَ أنْ تواظب على هذه العادة، وإلَّا أنتَ لا تفهم في أصول الحب.

الغُربة كابوس، وأنتَ مَنْ جئتَ بها إلى هذه الغربة ـ الكابوس، ماذا عليكَ أنْ تفعل غير أنْ تشتري لها ما تريد، تُقدِّم لها منزلاً عصريًا لا ينقصه شيء، في حين بيوت صديقاتها ينقصها كل ما

يستفيض عندها.. تأخذها إلى حيث الماء والشمس كل عام للاستجمام، وبكل نيَّة صادقة تنفّذ رغبتها في تعليمها سياقة السيارة، هل أنتَ مَنْ جاء بارتجاف جسدها وهي خلف المقْوَد؟ برأيها نعم، أنتَ الفاشل الذي لا يجيد تعليمها، وآخر المطاف تتفاجأ بأنَّ الكآبة مازالتْ تغلّف روحها.

روحكَ أم روحها حينما روحها مغناطيس يجذب روحكَ إلى هشيمها المتأجج.

تقنعها بزيارة الطبيب النفسي فتزجركَ بعصبية، وتقول:

ـ بأنها ليستْ مجنونة.

وأنتَ تؤكد لها بأنها بالفعل ليستْ كذلك، مَنْ لها ذوق مميز في إعداد الطعام، واهتمام غير عادي بنفسها لتبدو في غاية الأناقة والجمال.. بالتأكيد هي ليستْ مجنونة، هي تحب كلمات الإطراء، تحب أنْ تقول لها: إنكِ من صِنو القمر، إنكِ قطعة من الضياء الذي يغمر الكون.

هي هكذا امرأة لا تشعر بالكمال إلا مع الكماليات.

• • • •

برغبةٍ منكَ جَلَسْتَ في غرفة الانتظار، كنتَ لا تريد أنْ تكون حاضرًا بينها وبين الطبيب الذي أكّد بأنه لا يمانع بأنْ تكون

معهما في الغرفة، اكتفيتَ بالانتظار، وتركتَ أمر الترجمة لمترجمٍ خاص، تناولتَ من على المنضدة مجلة متخصصة بالعلوم السيكولوجية، ورحتَ تطالعها لقتل الوقت، في المجلة معلومات مثيرة عن حالات النفس مع الجنون، ومآثر الجنون في صنع العبقرية.

ساعة بالتمام، وتخرج من غرفة الطبيب بوجهٍ عكرٍ لا ينمُّ عن ارتياحها من مقابلة الطبيب، تدفع إليكَ بالوصفة الطبية، وهي تقول:

ـ إنَّ هذه الأدوية لن آخذها، ولن أعود إلى هنا ثانيةً، هذا طبيب مجنون يعتقد أنَّ كل الناس مجانين.

كأنكَ ارتكبتَ الخطايا كلها بأخذها إلى العيادة النفسية، سيتحوَّل التقرير الطبي الذي أرسله الطبيب بعد يومين عبر البريد إلى لائحة اتهام ضدكَ، ستجعلكَ أمامها وأمام أهلها بأنكَ المسؤول الأول والأخير عن أحوالها النفسية المضطربة، أنتَ صانع آلام رأسها، سيِّد الكابوس، عفريت اللَّيل.

في التقرير: إكتئابٌ مزمن مقيم، فقدان المقدرة، الخوف من مواجهة الآخرين، صعوبة في التعلُّم واكتساب الخبرات، إحباط وعزلة كنتيجة مفهومة لحالتها... وفي آخر التقرير يوصي الطبيب بالعناية بها وتقديم يد العون.

تترجم لها محتوى التقرير، وأنتَ تلمحها زائغة العينين لا يبدو

عليها الاهتمام، وعند المساء ترمي بوجهكَ الصدمة كأفدح ما تكون الخسارة عبر اقتراحها تحويل مصاريف الطبيب وأدوية العلاج النفسي إلى مصاريف لاستشاري التجميل تفكّر هي بزيارته صباح الغد.

أين يذهب الهواء النقي من هذا البيت؟ صدركَ يضيق حتى الاختناق، فتخرج هائمًا على وجهكَ لعلّكَ تجد الهواء عبر التسكُّع في شوارع المدينة المسكونة بالريح والمطر.

لَـوْعَـة

كان يشبهني في كل شيءٍ، كل شيءٍ فيه منِّي، إلا أنَّ حواسه ومشاعره كانتْ تتفوُّق بشكلٍ غريب على مكوناتي الروحية، لديه حساسية فائقة الشفافية تنزاح إلى ما فوق الطبيعي من مسلَّمات الأمور تصل به إلى حدٍّ ما لا يطيق، حين أنا أُسلِّم ما يتيسر لي من عقل السبيل كي يتدخل بيني وبينه، وهذا ما يمكّنني بأنْ أطيق لتُكتَب لي النجاة.

حينما لا يطيق يفرض على نفسه عُزلة لوقتٍ يصعب حسبان أمده، يُكلِّم نفسه، ويصدر إيماءات كأنه ممثلٌ وحيدٌ على المسرح، وتصير الغرفة غابة من الدخان، وروحه قطيع من الألم، هيهات عيناه أنْ تأتي بالدموع؛ لتغسل الندوب التي تبدأ بأخذ معالمها على جسد مهدود، هو جسدي قبل أنْ يكون جسده.

تظلُّ الندوبُ عالقةً في أهداب روحه، التي هي روحي حين أخرج أنا إلى الهواء، وهو معي لا يفارق خطاي، وأنْ أخرج وهو يحثني على مزيدٍ من التقوقع تكون مساحة العقل بيني وبينه على صحو، وهو العقل دون سواه مَنْ مسح خطوط الإحباط في لوحة ذاكرتي، ودفعني للخروج لمعانقة الحياة من جديد.

في المقهى حيث ألتقي ببعض الأصدقاء القلائل يجلس على طرفي، ويظلُّ صامتًا يراقب الشارع من خلال زجاج المقهى، ويعدُّ السيارات المارة في اتجاهين، وحدي أعرف أنه في هذه اللحظة يُخضع عدد السيارات إلى استكشاف أمر ما يودُّ الإقدام عليه، ويظلُّ مترددًا وحائرًا أمامه، فيقول في سِرِّه:

ـ يحصل أو لا يحصل كلما مرَّتْ سيارة.

كطريقة العاشق الذي لا يعرف حقيقة مشاعر معشوقته، فيمسك بوردة، ويروح ينتف أكمامها كُمًّا كُمًّا، وهو يردِّد:

ـ تحبني ولا تحبني.

البارحة طلبتْ لقائي لأمرٍ هام، أنهيتُ مشاغلي الوظيفية، وذهبتُ للقائها في كافتيريا البحر حيث نلتقي كل مرة، الطاولات هناك تشهد كم لوعة، وكم شهقة، وكم دمعة انسكبتْ في عمران عشقنا الكبير.

كان أهلها لا يريدونني زوجًا لها، بنظرهم لستُ من المستوى الذي يأملونه في زوج ابنتهم، الأغنياء يميلون إلى الأغنياء، وأنا لستُ من الأغنياء، ولا يحقُّ لي تخطي عتبة "فيلاتهم"، ولمَّا تخطيتها بكل إصرارٍ طلبًا ليدها لم ينالني سوى الطرد بشكلٍ مُهين من قِبل والدها، إلا أنها واظبتْ على مواعدتي بأعراسٍ من اللوعة والدموع.

يقتعد في رأسي مرتعدًا من أمر هذا اللقاء، كان يحدثني عن أسوأ

الاحتمالات، ويزرع بي الظنون من قبل ما تبدأ هي بالحديث، ولكنَّ عيناها الدامعتان كانتا تفضحان المكتوم من كلام تأخر على لسانها بالمجيء، كانتْ تحتاج لأنْ تُلمْلِم نفسها؛ لتقول:

ـ قد آن أوان الافتراق، لقد جاء أبي برجلٍ بينهما أعمال وصفقات ليكون زوجًا لي، أحبكَ طالما بي نبض، ولساني سيظل يهتف باسمكَ ما حييتُ.

وقامتْ مسرعةً لتمضي في الرحيل.

جاءتني قشعريرة برد، وشعرتُ بهدير أمواج البحر في قلبي، وكأنه ليس أمامي خلف الزجاج، أقدامي لا تقوى على الخطى أُجرجرها تحتي أبتغي الوصول إلى البيت، إلى عُزلتي هناك، حيث للروح التماعات الجحيم.

الذي يشبهني وهو منِّي بكل شيءٍ يأبى أنْ يمضي وإياي، يريد أنْ يقضي بقية النهار على شاطئ البحر، لأول مرة يتمرد عليَّ ولا يتبعني، فيما مضى كان يعاندني بعض الوقت، ثم يذعن لمشيئتي، ها هو ينفصل عنِّي ويتنكرني كأنه لم يكن منِّي يومًا.

آخذ طريق البيت محطمًا ومكسورًا، بينما هو ينزل الدرجات إلى شاطئ البحر فاتحًا صدره للرياح، هناك عاصفة غير منتظرة يعبِّئ صدره منها، فتسري فيه قوة غريبة تدفعه إلى المياه العميقة، وهو يظن أنه يمشي على الماء، وكنتُ أشعر بخبطه بين الأمواج في صدري، في عتمتي أراه مغمورًا تحت المياه، وهو

يشير إليَّ لأتبعه في حين أنا لا أقوى، متهالك على الأريكة أهيِّئ نفسي لعودته من الماء، أفتح له باب الروح ليدخل، ومن أهدابه يتساقط الملح على جراحي، فتنوء ذاكرتي عن عقلي، ولا أعود أجد نفسي في أي مكانٍ.



المؤلف في سطور

- شاعر وقاص وإعلامي فلسطيني، مقيم في السويد.
- عمل في عدة مؤسسات إعلامية فلسطينية وعربية في بيروت ودمشق، قبل هجرته الى السويد عام ١٩٩٠.
- صحفي مستقل يكتب في عدة صحف عربية ومواقع إلكترونية.
- أنشأ ويدير صحيفة "ألوان عربية" الإلكترونية منذ عام ٢٠٠٩.
- عضو في إتحاد الكتّاب السويديين.
- الإصدارات:

١. دماء على الظلال : قصص. دار الصمود العربي ـ قبرص، بالاشتراك مع الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، عام ١٩٨٥
٢. كما تفكّر صحراء : شعر . دار الفارابي للنشر ـ بيروت، ١٩٩٨
٣. أقصى الحب ... أقصى الموت : قصص. دار بيسان للنشر والتوزيع والإعلام ـ بيروت، ٢٠٠٠
٤. أرى صورتي في الغمام : شعر . شمس للنشر والإعلام ـ القاهرة، ٢٠١٠
٥. ما يضرُّ الكون لو أبقى حيًا : شعر . سندباد للنشر ـ القاهرة، ٢٠١٢
٦. مملكة الرئيس : قصص. كتاب إلكتروني عن دار التقدم ـ ستوكهولم، ٢٠١٣
٧. قصائد من حدس الأمل : شعر باللغة السويدية. كتاب إلكتروني عن دار التقدم ـ ستوكهولم، ٢٠١٣
٨. جنائن الهيستيريا : قصص . شمس للنشر والإعلام ـ القاهرة، ٢٠١٤

- البريد الإلكتروني : said.58@hotmail.com

الفهـرس



(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065

www.shams-group.net